قدمت أعذاري

عبد الوهاب مطاوع

دار الشروق

عبد الوهاب مطاوع

قدمت أعذاري

دار الشروق

هذا الكتاب

هذا كتاب يختلف عن كل ما أصدرت من كتب جاوزت حتى الآن الثلاثين عددا !

فهو ليس مجموعة مختارة من قصص بريد الجمعة كما هو شأن بعض كتبي، ولا هو مجموعة من الصور الإنسانية والمقالات الأدبية كحال بعض كتبي الأخرى، ولا هو أيضا مجموعة من القصص الرومانسية القصيرة كحال بعض كتبي الأخيرة، وإنما هو - إذا صح التعبير - تسبيحة خاشعة بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعريضة استغفار واسترحام أتقدم بها إلى الأعتاب الإلهية راجيًا بها عفو ربي ومغفرته ورحمته التي وسعت كل شيء ولا أمل لأمثالي من المقصّرين في غيرها يوم العرض العظيم.

فلقد اعتدت على مدى السنوات العشر الأخيرة، أن اكتب مقالا دينيا واحداً في شهر رمضان من كل عام، مستلهما من الجو الروحاني الكريم للشهر الفضيل زاداً يشجعني على الاقتراب من بحر الكتابات الدينية التي أقف على شاطئها متردداً وخائفًا، فوجدت نفسي بغير تدبير مسبق أكتب هذا المقال كاستغاثةسنوية موجهة إلى السماء أتبرأ فيها من خطاياي وخطايا البشر أجمعين.

وبعد عشر سنوات طوال وجدت أمامى عددا من المقالات التى تمثل إلى جانب ما تعبر عنه من أمل العاجز فى العفو والمغفرة، عصارة قراءاتى الدينية على مدى أكثر من أربعين عاما، وجماع ابتهالاتى الدائمة إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى، وصوراً لبعض الشخصيات الدينية، وبعض المواقف التاريخية التى تأملتها طويلا وأثرت فى عقلى ووجدانى خلال قراءتى لتاريخ الإسلام والبشرية.

ولقد ألح على بعض الأصدقاء فى جمع هذه المقالات والصور الأدبية التاريخية فى كتاب صغير يحفظها من الضياع، فاستجبت لنصيحتهم وقدمت لك هذا الكتاب، فعسى أن يلقى لديك ما لقيته عندك كتبى السابقة من قبول كريم، وعسى أن يغفر الله لى بما سطرته فيه من استغاثات وابتهالات عاجزة بعض ما قدمت يداى خلال رحلة العمر وفيها ما فيها مما لا تخلو منه حياة البشر الضعفاء من آثام.

واللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم.

وسلام على المرسلين.. والحمد لله رب العالمين.

عبد الوهاب مطاوع

قدمت أعذارى!

.. جلست لأكتب مقالى الشهرى لمجلة الشباب بعد الإفطار بقليل فى أحد أيام شهر رمضان فضاعت منى الكلمات والأفكار.. قررت فى البداية أن أكتب مقالى عن فكرة من الأفكار التى تشغل أذهان الشباب كعادتى فى معظم ما أكتبه فى هذا الباب.. مخالفا بذلك عادتى السنوية حين أكتب مقالى «الدينى» الوحيد فيه.. وراودت نفسى على ذلك، مؤمنا بأن كل كلمة تستهدف إعلاء المثل العُليا وقيم العدل والحق والكفاح الشريف.. والمساواة والكرامة الإنسانية والعطاء للحياة، هى «كلمة دينية» فى مضمونها وإن لم تستخدم مفردات الخطاب الدينى، فإذا بالقلم يعصانى، ويرفض إلا أن يخط «عريضة الاسترحام» التى يتقدم بها كل سنة فى هذا الموعد إلى الأعتاب الإلهية!

فى شهر رمضان تكثر قراءاتى الدينية.. وتكثر ابتهالاتى الصامتة والعلنية إلى رب العفو الرحيم أن يغفر لى ولكل الخطاة من البشر ما تقدم وما تأخر من أمرهم.. وتتعلق آمالى برحمة ربى التى وسعت كل شيء، فيتردد فى أعماقى بيتان مؤثران من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى الجميلة «نهج البردة» يقولان بأبلغ عبارة:

وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى وجئت بضعفى شافعا وشكاتى

وأنت ولى العفو فامح بناصع من الصفح ماسودتُ من صفحاتى !

فهل يتقبل ولى العفو حقا أعذارنا ويرحم ذلنا وخشيتنا ؟

قرأت فى الموسوعة الإسلامية أنه فى الفقه الشيعى يُفضَّل أداء ألف ركعة من النوافل خلال شهر رمضان، وقسمتها فى مخيلتى على أيام الشهر فوجدت نصيب اليوم منها ثلاثاً وثلاثين ركعة إلى جانب الفروض الخمسة . . . فأين لنا بهمة الصوفية وتشميرهم فى العبادة أملا فى استدراك مافات !

تستنيم مشاعرى لما يرويه الرواة والمنشدون فى بعض الأذكار الصوفية عن ذلك «الحوار الدرامى» الذى يتمثله الخيال الصوفى بين رب العزة جل شأنه، ورسوله الأمين، يوم العرض العظيم، حيث يقف نبى الرحمة محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه بين يدى مولاه مستشفعا لأمته لدى رب رحيم . . فيقول : يا رب أمتى، فيجيبه رب العرش العظيم مترفقا به وبعباده : أنت تقول أمتى . . وأنا أقول رحمتى، فواعزتى وجلالى لأقسمن خلقى بين شفاعتك ورحمتى !

فينجو أمثالنا من الضعفاء ومن قصرت همتهم عن جد الفائزين بصالح الأعمال . . ولا يحتاجون إلى العرض على لجان الرأفة . يستريح قلبى إلى هذه القصة الخيالية . . ويجد فيها بعض سكينته الهاربة . . وأين المفر لأمثالنا إن لم نتعلق بأذيال الأمل فى رحمة رب غفور . . وشفاعة نبى شفوق !

تتندى عينى حين أقرأ لأمير الشعراء بيتًا جميلا من الشعر يتمثل فيه

نفسه واقفا أمام قبر الرسول الكريم راجيا شفاعته يوم يكون الحساب . . . وبعد أن قدم أعذاره . . . يستدرك قائلا :

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمتُ بين يديه عبرة الندم !

وهل يملك أحدنا سواها . . إذا عز عليه أن يتقدم بصالح الأعمال ؟

تذكرنى دائما قصيدة نهج البردة لأمير الشعراء فى مدح «أمير الأنبياء» كما يصفه ـ بالقصيدة الأخرى التى نسج شوقى على منوالها مديحه هذا . . فرفعت من شأن صاحبها إلى مقام الأولياء الصالحين . . وغفرت له لدى الناس ما تقدم وما تأخر من ذنبه . إنها قصيدة البُردة للشاعر المصرى الصميم محمد بن سعيد الصنهاجى البوصيرى الذى عاش بين عامى ١٢١١ ـ ١٢٩٦ . . وولد بالبهنسا ومات بالقاهرة كما تقول الموسوعة العربية الميسرة . . ولا أعرف كيف انتقلت رفاته إلى مثواه الآن فى ضريحه الصغير المجاور لمسجد شيخه وأستاذه أبى العباس المرسى بالإسكندرية .

إنها قصيدة فريدة فى صدقها الشعورى، على خلاف معظم أشعار ديوانه، وقد أحيطت بقصص خرافية كثيرة، وتحولت إلى ورد فى أذكار الصوفية يتلونه ويترنمون به ويتبركون . . وكتبت بماء الذهب على جدران مسجده الصغير الذى يعرفه أهل الإسكندرية باسم مسجد الأباصيرى، وطبعت منها ملايين النسخ . . وترددت فى أنحاء العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه، وعنى العلماء والأدباء والصوفية بها فألفوا حولها الشروح العديدة وترجمت إلى لغات عديدة، وكانت أحدث ترجماتها ترجمة جميلة جديدة للإنجليزية قامت بها الدكتورة

ثريا مهدى علام . فما أعجب شأن هذه القصيدة المباركة ؟! لقد نسى الناس للشاعر من أجلها ـ كما يقول أستاذنا الأديب الراحل يحيى حقى ـ كل ما مضى من أمره وكل ما قال من أشعار بعضها متكلف وركيك . . ولم يعودوا يذكرون له سوى هذه القصيدة . . ومن أجلها وحدها دُفن كما يدفن الأولياء الصالحون ، وأنشد المنشدون أبياته فيها ، فما خلا حفل قران طوال قرون عديدة فى بلاد إسلامية مختلفة من إنشاد جماعى لقصيدته ، ولا خلت مناسبة للاحتفال بالمولد النبوى بغير ذكر أبياتها والترنم بها . . وترددت حولها القصص الشعبية الكثيرة فقيل إنه قد كتبها بعد أن أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول ، وقيل بل كتبها بعد أن مرض بالفالج ورأى فى نومه رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على وجهه ويلقى عليه «بردته» أى بالكساء الذى يلتحف به إيذانا بالشفاء بأمر ربه . . فنهض من نومه مستبشرا وكتب قصيدته وسماها «البُردة» . . أو «البرُءة» بمعنى الشفاء من المرض . . وقيل أيضا إنه سماها البردة تبركا ببردة رسول الله التى خلعها على كعب بن زهير حين جاءه مادحا بقصيدته الشهيرة ومطلعها «بانت سعاد» .

ثم جاء أمير الشعراء فنسج على قافيتها قصيدته الجميلة وسماها تواضعا منه «نهج البردة» وقدم لذلك قائلا :

المادحون وأرباب الهوى تبع . .

لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

كأنما يقول إن كل من يمدح الرسول الكريم بعد البوصيرى فهو تابع له ومقلد مع أن معظم نقاد الأدب يعتبرون قصيدة شوقى أعلى قيمة منها من الناحية الفنية ، لكن هيهات أن ينال شيء من قدر قصيدة البوصيرى

المباركة . . وما زالت نفوس المؤمنين تجد بعض طمأنينتها فى هذا البيت الشهير من أبياتها :

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   إن الكبائر فى الغفران كاللمَم

و«اللمم» فى اللغة هو الصغير من الذنوب .

ولقد عبر عن نفس المعنى شوقى فى رائعته قائلا :

إن جلَّ ذنبى عن الغفران لى أمل   فى الله يجعلنى فى خير معتصم

نعم . . هذا هو الأمل الباقى حقا . . والأمنية الصامتة للقلوب الخائفة .

وهل من أمل سواه ، وما سمحت لنا الأيام وصراع الحياة للأسف بأن نفعل ما فعله بنفسه أبو يزيد البسطامى القطب الصوفى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، والذى وصفه قائلا :

كنتُ اثنى عشر عاما حدَّاد نفسى . . ألقيت بها فى كور الرياضة «يقصد رياضة الجسم على العبادة» وأحرقتها بنار المجاهدة «مجاهدة رغبات النفس وشهواتها» ووضعتها على سندان المذمة وطرقتها بمطرقة الملامة «لوم النفس على هفواتها ومطامعها الزائلة» حتى جعلت منها مرآة ، وكنت خمس سنين مرآة نفسى أصقلها دائما بأنواع من العبادات والتقوى ، ثم سنة أنظر فيها بعين الاعتبار ، وقد نظرت فإذا فى وسطى زنار من الكبر والعجب « أى الإعجاب» والرياء . . . والاعتماد على الطاعات «أى الاعتداد بطاعته لربه» والاعتماد على الأعمال «أى الاكتفاء بصالح الأعمال عن طلب المزيد منها» فعملت خمس سنين حتى انقطع ذلك الزنار ، واعتنقت الإسلام من جديد ، ونظرت إلى

الخلق فوجدتهم موتى «أى فى ضلالهم وصراعهم على متاع الدنيا الزائل كالموتى لا يبصرون»، فكبرت عليهم أربع تكبيرات ورجعت من جنازتهم جميعا!».

فهل لأمثالنا إذن من أمل إلا أن نرجو الله من قِبَله ولا نرجوه من قِبَلنا كما قال الخليفة المعتصم مستغفرا ومسترحما وهو فى النزع الأخير. . أى أن نرجوه اعتمادا على كريم عفوه وواسع مغفرته وليس اعتمادا على «كتابنا» الذى نتقدم به إليه . . وهل عرفت الآن لماذا يجفل قلبى كلما رددت من آى الذكر الحكيم هاتين الآيتين من سورة الإسراء ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾ (الإسراء: ١٣، ١٤).

وهل فهمتُ أنا لماذا ارتبكت وجفلت وأنا أصلى وراء صديق متدين فى شقة تطل على الحرم النبوى بالمدينة المنورة منذ ثلاث سنوات حين قرأ هذه الآية فى صلاته. . حتى كادت تفسد صلاتى؟

لقد تمثلت فجأة هذا المشهد الرهيب و«كتابى» منشور أمامى يوم الهول العظيم، وقد شرح هذ الآية المرحوم الأستاذ سيد قطب فى «ظلال القرآن» فقال: إن «هذا الكتاب يصور عمل الإنسان مكشوفا لا يملك إخفاءه أو تجاهله أو المغالطة فيه».

ثم كفى بنفسك بعد ذلك حسيبا حين ترى «كتابك» أمامك منشورا ومكشوفا. . فأى موقف عصيب. . وأى أمل فى النجاة. . إن لم تدرك الجميع رحمة من وسعت رحمته كل شىء. . سبحانه؟

وهل يملك أمثالنا إلا أن يقولوا مع أمير الشعراء فى قصيدته الأخرى «إلى عرفات الله»:

ويارب هل تغنى عن المرء حجةٌ ... وفى العمر ما فيه من الهفوات

أو نقول معه فى بردته:

إذا خفضتُ جناح الذل أسأله ... عزَّ الشفاعة لم أسأل سوى أَمَم

و «الأَمَم» هو الشىء اليسير. . وهو اليسير حقا عند «صفوة البارى ورحمته» عليه الصلاة والسلام. . . لكنه جليل وعزيز وغال بالنسبة لنا.

وهل نملك شيئا آخر إلا أن نقول معه:

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفًا ولا تُسِم

يا رب أحسنتَ بدءَ المسلمين به ... فتمِّم الفضل وامنح حسن مُختتم

آمين يا رب العالمين. .

إجلس.. يرحمك الله !

توقع منى بين حين وآخر أن أروى لك قصة معروفة أو غير معروفة عن العظيم عمر بن الخطاب ـ فإذا سألتنى وما المناسبة ؟ أجبتك : بلا أى مناسبة سوى أنى مفتون بشخصية هذا الخليفة العادل المتنور وأكاد أحفظ عن ظهر قلب سيرته وأحلم منذ عشرين عاما بأن أؤلف كتابا عنه، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أصادف أية إشارة عنه فى بعض كتب السيرة والتاريخ الإسلامى أو فى الصحف والمجلات إلا وأقصها أو أنقلها بخط يدى وأودعها ملفا خاصا أعود إليه من حين إلى آخر مصمما على أن أبدأ مشروعى العظيم . . . فأنسى نفسى واستغرق فى قراءة ما سبق أن قرأته مرارا ثم يشغلنى عنه مايشغل الناس من أمور الحياة . أما ماصدر عنه من كتب فهو فى مكتبتى وفى مكان بارز أمد يدى إليها من حين لآخر وأجد فيها فى بعض الأحيان الإجابة عن بعض الأسئلة المعاصرة الحائرة. . وفى أحيان أخرى بعض السلوى عن أحزان الحياة !

فحين رحل شقيقى الأصغر عن الدنيا شابا فى عمر الزهور ثم رحل بعده شقيقى الأكبر فى سن النضج والتفتح للحياة كثيرا ما توقفت طويلا أمام قصة عمر مع متمم بن نويرة الذى قتل خالد بن الوليد أخاه

مالكا فى حروب الردة، فقد كان مقتله موضع جدال بين خالد وعمر فقال بعض الصحابة إن مالكا قد عاد للإسلام وفهم خالد أنه ثابت على ردته، وكان عمر قد فقد فى هذه الحروب نفسها أخاه زيدا وعاد ابنه منها سالما فبكى أخاه أحر البكاء، ثم جاء متمم شقيق مالك إلى المدينة يطلب رد السبايا ودية أخيه فلقيه عمر مواسيا ومعزيا وسأله «ما بلغ بك من الوجد على أخيك؟» فأجابه فسأله عمر أن ينشده ما قال فى رثائه : فأنشده أبياتا حزينة كثيرة لم يتمالك عمر ـ الذى ترتج الأرض تحت قدميه من هيبته وقوته ـ نفسه معها وطفرت الدموع غزيرة من عينيه . . . ثم قال له مستعبرا : هكذا يكون الحزن على فقد الشقيق .

وكان قاتل زيد بن الخطاب مسلما ارتد عن إسلامه وشارك فى حروب الردة ثم عاد إلى الإسلام فعصم من عمر دمه، وأصبحت له كل حقوق المواطن ثم تولى عمربن الخطاب أمر المسلمين وأصبح قاتل أخيه يقف ليجادله فى أمور الناس أو ليطلب منه عطاء فيجيبه إلى ما يراه حقا له بلا نقصان ثم يقول له : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها !

فيسأله : أيمنعنى ذلك حقا من حقوقى؟

ويجيب عمر : لا والله . فيرد : إذن فلا أبالى . . . إنما يبكى على الحب النساء ! ويمضى فى طريقه آمنا على نفسه وماله وحريته فى ظل حاكم عادل يبكى ويندب حظه ويولول قائلا : ليت أمى لم تلدنى، لأنه قد سمع رضيعا يبكى فسأل أمه عما يبكيه فأجابته بالدعاء على عمر لأنه لا يجعل للأطفال نصيبا فى عطاء بيت المال إلا من سن الفطام ولهذا فهى تحاول إرغام طفلها على الفطام قبل موعده . . . فتركها

ولهذا فهى تحاول إرغام طفلها على الفطام قبل موعده . . . فتركها مهرولا يأمر بمن ينادى فى الناس لا ترغموا أطفالكم على الفطام قد جعلنا لكل مولود فى الإسلام عطاء ! ويبكى إذا عاد المسلمون بالمال الكثير من فتح فارس خوفا من فتنة المال والدنيا . . . و يبكى كلما تذكر همَّه بأمور الناس وثقل الأمانة ، أو يعزل خالد بن الوليد من إمارة الشام لأشياء رآها عليه ، ثم يموت خالد فلا يخلف وراءه سوى فرسه وسلاحه ويجعل لعمر الوصية على ماله وعياله فيسمع نساء خالد يبكينه فيبكى معهن ويقول : على مثله تبكى البواكى ، ثم يستمع إلى مقالة ابن عم خالد العنيفة ضده وهو يخطب الناس فلا يغضب منه ولا يأمر بحبسه وإنما يقول له هادئا : أنت قريب القرابة . . . حديث السن . . . مغضب فى ابن عمك . . . فاجلس رحمك الله . فيجلس رحمه الله . . . ويرحم عمر وخالدا ويرحم الجميع .

أصلح الله الأمير!

حدثتك من قبل عن أنى مفتون بشخصية الخليفة العظيم عمر بن الخطاب . . وحذرتك من أنى سوف أروى لك من حين إلى آخر قصة معروفة أوغير معروفة عنه ، لكنى لم أحدثك بعد عن افتتانى بشخصية أخرى فى التاريخ الإسلامى هى شخصية الإمام أبى حنيفة النعمان !

إنه أحد الأئمة الأجلاء الأربعة وزعيم مدرسة الرأى فى الفقه وصاحب المنطق العقلى الذى يقنعك بحججه واستدلالاته المنطقية فتشعر معه بمتعة عقلية وفكرية كمتعة الأدب . ومن سيرته الحافلة التى قرأتها مرارا أجد نفسى أتوقف دائما أمام حقيقة مؤلمة هى أنه قد تعرض ـ كغيره من كبار الأئمة والفقهاء ـ لايذاء السلطة ومحاولاتها لتطويعه واستخدامه ، لكنه ربما تفرد من بينهم بأنه قد أوذى من الأمويين والعباسيين معا مع اختلاف دولتيهما ، فلقد عرض عليه الأمويون والعباسيون ولاية القضاء وبيت المال فأبى فضربه الأمويون على ذلك ! وحبسه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي . وروى المؤرخون أن المنصور دعاه للقضاء فرفض واعتذر فأمر بحبسه ثم استدعاه ذات يوم وسأله : أترغب عما نحن فيه ؟فأجابه : أصلح الله

الأمير إني لا أصلح للقضاء فقال له: كذبت ! فأجابه الشيخ الإمام بهدوء الحكماء: قد حكمت على بذلك بأني لا أصلح للقضاء ! فقد نسبتني للكذب فإن كنت كاذبا فلست أصلح للقضاء وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين بأني لا أصلح له من قبل ! فلم يحر المنصور جوابا وأمر بأن يعود إلى سجنه إلى أن تم الإفراج عنه بعد حين !

فهل لاحظت معى اعتماده على الحجة المنطقية فى كل الأمور حتى فى حواره مع حاكم طاغية لا يعرف إلا فرض إرادته على الآخرين ؟

لقد ناظره مرة أحد الخوارج هو الضحاك الشارى فطلب من أبى حنيفة أن يتوب عن إجازته للتحكيم بين على ومعاوية فى صراعهما المعروف ، وكان الخوارج يكفرون من يجيزه من الفقهاء وكان أبو حنيفة ممن يجيزونه فدعاه أبو حنيفة للمناظرة حول هذه المسألة وقبل الضحاك فسأله أبو حنيفة ومن يحكم بيننا إذا اختلفنا ؟ فأجابه: اختر من شئت فاختار الإمام واحدا من أصحاب الضحاك نفسه وسأله أترضى بهذا حكما بيننا ! فقال: نعم !

فأجابة الفقيه الحكيم بهدوء: إذن فأنت قد جوَّزت التحكيم !

وأفحم الضحاك ولم يحر جوابا وانتصر المنطق على الجمود والتطرف !

وغير ذلك كثير من المواقف التى كان سلاح أبى حنيفة فيها المنطق والرأى وإعلاء العقل البشرى والاحتكام إليه فيما لا نص فيه ولا حديثًا صحيحا ولا سابقة. أما هو فقد كان تاجرا ثريا يتاجر فى الحرير حتى بعد أن اشتغل بالعلم والفقه وكان أمينا فى تجارته فروى عنه أصحابه أنه

أبلغ شريكا له بعيب فى أحد أثواب الحرير وطلب منه ألا يبيعه إلا لمن يقبله بما فيه من عيب فنسى الشريك وصية الإمام الورع وباعه بغير أن ينبه المشترى لذلك وعلم أبو حنيفة بالأمر فأرسل غلاما يبحث عن المشترى فى كل مكان ليرد عليه ماله فلم يعثر له على أثر فتصدق بثمن الثوب ولام شريكه لوما عنيفا على أن أدخل فى تجارته مالا حراما !

وكان أبو حنيفة ينفق من ماله على تلاميذه والشيوخ الذين تفرغوا لجمع الحديث الشريف ودراسته فيرسل لهم أقواتهم وملابسهم ويعطيهم من ماله ثم لا ينسى أن يقول لكل منهم فى كل مرة يصلهم فيها بالمال:

انفقوا فى حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله !

فإنى ما عطيتكم من مالى وإنما من فضل الله علىَّ فيكم وهو والله مما يجريه الله لكم على يدى !

عليه وعلى أمثاله رضوان الله ورحمته وسلامه.

.. لو أنه يسمح !

لو أنه يسمح لى بأن أتطاول إلى أعتابه وأستشفع بشهر رمضان الكريم عنده فى أن يأذن لى بأن أكتب عنه ؟

لو أنه يسمح . . . وهو من لم يخذل ضعيفا ولم يرد سائلا ـ إذن لكتبت عنه أنه كان ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ متوسط الطول . . كبير الرأس إلى حد ما، عريض الجبين فى وجهه بعض الاستدارة، أسود العينين يوشك حاجباه أن يلتقيا وبينهما عرق إذا غضب انتفخ لكنه كان قلما يغضب، وكان أبيض اللون مشربا بحمرة، كبير الفم، أفلج أى بين أسنانه تباعد خفيف، ومشدود الجسم بلا ترهل ولا تراخ، كبير اللحية. إذا غضب ـ وقلما كان يغضب ـ احمر وجهه. وإذا حزن ـ وكثيرا ما عرف الحزن قلبه ـ أكثر من مس لحيته، وإذا رأى ما يكره أشاح بوجهه وإذا ضحك بدت نواجزه، وكان من أكثر الناس تبسما.

هذا وجهه وهيأته اللذان حفظهما لنا الرواة، أما عن أحواله فلقد كان بشرا كالبشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه. . وكان فقيرا يحب الفقراء ولا يحسد الأغنياء، كان يمضى الشهر أحيانا لا يجد ما يخبزه ويمضى الشهر والشهر والشهر ولا توقد فى بيته نار أى لا يجد ما

تطهوه نساؤه، وما شبع من خبز القمح ثلاثة أيام متتالية إلى أن اختاره ربه إلى جواره، وكان إذا اشتد به الجوع تصبر وخفف عن نفسه ألمه بربط حزام على بطنه، وهو من عرضوا عليه أن يجعلوه أغنى أغنياء العرب إذا ترك الدعوة لدين ربه ـ ورآه صحابته وهو يعمل فى حفر الخندق يوم غزوة الأحزاب والحزام مربوط على بطنه.

وكان رضىَّ النفس لم يعب طعاما قط إذا اشتهاه أكله وإن كرهه تركه وسكت دون تحريم، وكان على فقره ورقة حاله كريما مضيفا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر كما وصفه الأعرابى.

وكان إذا لبى دعوة قوم للطعام لم يخرج حتى يدعو لهم ويحث أصحابه على أن يفعلوا مثله، ودعا فى بيت سعد بن عبادة: أفطر عندكم الصائمون وأكل من طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة. . وكان يأكل بثلاثة أصابع ويجلس على الأرض ويوضع له الطعام على الأرض.

وقد مات ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين قدحا من الشعير اشتراها بالدين لطعام أهله. ومات ولم يملك يوما رداءين أو قميصين أو إزارين أو نعلين معا، فإذا اهدى إليه ثوب جديد تصدق بالقديم. ودخل عليه أبو بكر وعمر يوما فوجداه جالسا واجما ساكتا وحوله نساؤه، وأراد أبو بكر أن يسرى عنه. . . فقال له النبى ضاحكا: هن حولى كما ترى يسألننى النفقة ! فقام عمر إلى ابنته حفصة وأبو بكر إلى ابنته عائشة يجأ كل منهما رقبة ابنته وينهرها عن أن تطالب رسول الله بما ليس عنده! وهو من لو قبل مال قريش أو احتفظ بنصيبه من الغنائم لكان أغنى العرب.

ولم يكن رغم ذلك يحب الفقر أو يرضاه لأمته بل كان يكرهه ويستعيذ منه ومن تأثيره المدمر على روح الإنسان ودينه وكرامته، وكان جميلا يحب النظافة وحسن المظهر ويستخدم السواك ويتطيب أى يتعطر ويمشط شعره المتموج ولحيته، ويتكحل بالسواد ويصحو آخر الليل فيستخدم السواك ويتوضأ ويصلى. وكانت عائشة تضع له إذا خرج للقتال دهنا أى عطرا ومشطا ومرآة ومقصين ومكحلة وسواكا، وكان يضع فى يده خاتما من الفضة منقوشا عليه عبارة محمد رسول الله بترتيب تنازلى هكذا: الله، رسول، محمد، لأنه كره أن يعلو اسمه فوق اسم ربه.

وكان صلى الله عليه وسلم صديقا صدوقا لأصحابه ومجاملا متواضعا مع سائر الناس، إذا ودع أحدا أخذه بيده فلا يدعها حتى يكون هو الذى يدع يده.

ويسوق أصحابه أمامه حتى لا يمشوا وراءه تواضعا منه ونبلا، وناداه رجل مرة قائلا ياسيدنا وابن سيدنا فقال له: لا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله وما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى. ودخل السوق مع أبى هريرة يشترى شيئا فوثب وزّان ـ أى بائع ـ على يده يقبلها فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم. ثم حمل حاجته ورفض أن يسمح لأبى هريرة بحملها عنه قائلا: صاحب الشيء أحق بحمله.

وكان يخدم نفسه بنفسه رغم تلهف أصحابه وأكابر قومه على أن يقوموا عنه بما يحتاج إليه. وكان يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى

حاجتهما، ويخصف حذاء الرجل المسكين ويخيط ثوب الأرملة ويعود المريض فى مرضه، ومرض غلام يهودى كان يخدمه فزاره فى مرضه ودعا له بالشفاء.

وكان حليما صبورا عادلا لا يرضى لأمته بالظلم ولا يرضى لها بالسكوت عليه ويرى لكل امرئ أن يعبر عن رأيه ويطلب حقه بلا حرج، جلس يقسم الغنائم بعد إحدى الغزوات فاعترض أعرابى على قسمته وقال له: اعدل يا محمد! فلم يغضب ويأمر بقطع رقبته وإنما قال له فى حلم: ومن يعدل إذا ما لم أعدل أنا! وإذا كنت لا أعدل فقد خبتُ إذن وخسرتُ. ثم منع عمر بن الخطاب من أن يقتله قائلا: معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى.

ودفع رجلا فى بطنه بجريدة من النخل فطلب الرجل حقه فى القصاص من النبى، فاستجاب له على الفور ورفع قميصه عن بطنه ليضربه فانحنى الرجل وقبل بطن النبى وقال: إنما أردت أن يرتدع الجبابرة من بعدك!

وكان متواصل الأحزان دائم الفكر رقيق العاطفة. رزئ فى كل بنيه فلم تبق له منهم على قيد الحياة سوى فاطمة وحتى هى أيضا لبت نداء ربها بعد موته بستة شهور، ورزق وهو فى شيخوخته بطفل ففرح به وكان يصعد الجبل ليراه عند مرضعته وعاش الطفل ١٨ شهرا ثم مات فحزن لموته وبكى، وصرخ أسامة بن زيد لبكائه فنهاه وقال: البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان. وكسفت الشمس فتحدث الناس بأنها كسفت لموت إبراهيم، وسمع النبى بما قيل فوقف على المنبر يقول: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته.

وشهد احتضار حفيد له من ابنته زينب ففاضت عيناه بالدمع وتساءل سعد: ما هذا يا رسول الله ! قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء.

وزار سعد بن عبادة وهو مريض فبكى تأثرا بحاله وبكى شهداء غزوة مؤتة وفيهم جعفر بن أبي طالب ومولاه زيد، وسألوه ما هذا البكاء والشهداء في أعلى عليين؟ فقال ما معناه إنما هي عبرات الصديق شوقا إلى صديقه.

وكان رقيقا في معاملة مواليه فأعتق كل أسير صار إلى حوزته في الغزو وزاد على العتق رحمته بالخدم والضعفاء.

وقالت عنه السيدة عائشة: ما ضرب رسول الله بيده امرأة قط ولا خادما ولا ضرب شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله.

وكان وهو يقيم دينا ويصلح حال أمة ويغير مجرى التاريخ لا تشغله عظائم الأمور عن مجاملة الأصحاب والأهل والتبسط مع عامة الناس... والاستجابة لدعابتهم البريئة أحيانا. فكان رغم أحزانه كثير الابتسام يضحك حتى تبدو نواجذه ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا جدا. وكان يرتجز مع المسلمين وهم يحفرون الخندق ويرفع صوته مع المرتجزين أثناء العمل ويشاركهم الترجيع كما يشاركهم الحفر.

وقال ما معناه: روحوا عن القلوب ساعة بعد أخرى فإن القلوب إذا كلّت عميت.

وكان وهو أصدق العابدين في عبادته يقسم أيامه ثلثا لربه وثلثا لأهله وثلثا لنفسه، ويدعو إلى العمل وطلب العلم وإلى التمتع بطيبات

الحياة بلا زهد ولا أفراط ويقول عن نفسه: إني أتزوج النساء وآكل اللحم وانام وأقوم وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتي فليس مني.

ودعانا للتفكير في خلق الله واجتناب التفكير في ذات الله حتى لا نضل في متاهات الحيرة وقال «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله».

وكان عطوفا على اليتامى ويحث الناس على الرفق بهم والعدل معهم ويقول: «من وضع يده على رأس اليتيم رحمة كتب الله له بكل شعرة مرت على يده حسنة ويحب الستر على عورات والناس وأخطائهم، عسى أن يتوبوا توبة صادقة عنها. وقال لهزال الأسلمي حين جاءه بيتيم تحت رعايته معترفا بارتكاب الزنا: «ياهزال بئس ما صنعت بيتيمك لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك».

ثم يراجع اليتيم في اعترافه مرات ومرات لعله يرجع في اعترافه فلا يرجع ويأمر بتنفيذ الحد عليه.

وكان يكره الوشاية والوشاة والتجسس على أعراض الناس وعوراتهم وقال: من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقئوا عينه.. فلا دية له ولا قصاص.

وقال: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا.. فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر.

وكان رفيقا بزوجاته ويحث الآخرين على الرفق بزوجاتهم والتلطف معهن وقال: أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وأنا ألطفكم بأهلي.

وأمر من استأمروه فى أمر زواج ابنتهم أن يزوجوا ابنتهم للفقير الذى ترغبه وليس للثرى الذى يريدونه لها على غير رغبتها وقال: لم نر للمتحابين مثل النكاح.

وكان يسمر مع زوجاته ويصبر على شكواهن من ضيق معيشته.. ويتبسط معهن. وهيأ لعائشة أن تتفرج على رقص أهل الحبشة وغنائهم فى باحة المسجد، وسابقها مرتين فسبقته مرة وسبقها أخرى وقال لها هذه بتلك وكان يقبلها وهو صائم.. وكان يعود من سفره أو غزوه إلى المسجد فيصلى ويرسل من يعلم زوجاته بعودته حتى يستعددن للقائه ولا يرى منهن ما لا يحببن أن يراه. ويعطف على البنات ويوصى الآباء والأمهات بالرفق بهن، وروى له رجل كيف وأد ابنته فى جاهليته وقبل إسلامه فبكى ونزل دمعه على لحيته حتى صاح اصحابه: كفى يا رجل أحزنت رسول الله. فنهاهم ودعاه لمواصلة الحديث. وقال: من ربى ابنتين جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا. وضم أصبعيه بمعنى متجاورين.

ودعا للبر بالوالدين والرفق بالأهل وإحسان الصحبة للأصحاب والناس جميعا. وكان يتقدم أصحابه فى الجهاد.. وكان كما قالت عائشة: من أكثر الناس استشارة للرجال وهو من كان يتلقى الوحى من السماء، ونزل عن رأيه بلا غضاضة حين أراد أن يعسكر بجيشه الصغير فى موقع فسأله أحد رجاله: أهو منزل أنزلكه الله أم هى الحرب والرأى والمكيدة؟ فأجابه: بل هى الحرب والرأى والمكيدة. فاقترح الرجل منزلا آخر أكثر ملاءمة من الناحية الحربية واستجاب الرسول لاقتراحه حين رأى وجاهته.. وحج النبى وخطب الناس وتلا قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ (المائدة: ٣). فبكى أبو بكر وأحس بأن النبى وقد تمت رسالته فقد دنا يومه.. ورجع النبى إلى المدينة فبدأ يحس بآلام مرضه، ومر بعائشة فوجدها تشكو صداعًا وتقول: وارأساه، فداعبها رغم مرضه وقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه.. واشتد به المرض فاستأذن نساءه فى أن يرقد فى بيت عائشة، واشتدت به الحمى فكان يخرج للصلاة بالناس بغير أن يقوى على محادثة أصحابه. ولم ينس مسئولياته فأوصى بإيفاد بعث أسامة على رأس الجيش الذاهب إلى الشام، واوصى المهاجرين بالأنصار وأمر أبا بكر بأن يصلى بالناس. وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف وينام أحيانا على عباءة تثنى مرتين. فرقد مريضا فى بيت عائشة واشتد به الألم فكان يضع يده فى إناء به ماء بارد ويمسح به على وجهه ليخفف عنه ألم الحمى، وغشى عليه أكثر من مرة وبكت فاطمة مما رأت وقالت: واكرب أبتاه فأفاق وقال لها لا كرب على أبيك بعد اليوم. وزاره أسامة وقد عجز - بأبى هو وأمى - عن الكلام فرفع يده إلى السماء ووضعها على رأس اسامة علامة على أنه يدعو له بالتوفيق. واشتد به الألم فوضعت عائشة رأسه فى حجرها والناس من حول بيت النبى يبكون والصحابة تفيض عيونهم بالدمع على حبيبهم الذى سكت عن الكلام، ثم أحست عائشة برأس النبى يثقل فى حجرها فنظرت فى وجهه ووجدت بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة. فقالت له: خُيِّرت فاخترت والذى بعثك بالحق. وقبض رسول الله كما قالت وهو بين سحرها - أى صدرها - ونحرها فوضعت رأسه الشريف على وسادة الليف وقامت تلتدم مع النساء وتبكى مع الباكين.

سلام الله وصلاته عليه. عليه أفضل الصلاة... وأزكى السلام.

أين معاوية ؟

هل تستطيع أن تتذكر من بين أقاربك أو معارفك أو أصدقائك شخصا اسمه معاوية ؟

أغلب الظن أنك ستجد كثيرين يحملون أسماء عمر وبكر وعثمان وعلى وحسن وحسين لكنك لن تجد غالبا شخصا اسمه معاوية . . مع أنه إسم جميل ! والسر فى ذلك فى تقديرى هو أن المسلمين ـ سنة وشيعة ـ لا يحبون اسم معاوية ولا يفضلونه لأبنائهم . . أما الشيعة فأسبابهم فى ذلك معروفة وهى أنهم لا يكرهون أحدا كما يكرهون معاوية بن سفيان لأنه نازع عليًا بن أبى طالب فى خلافته وخرج عليه ولأن ابنه يزيد هو الذى قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين الشهيد ودبر من قبله مقتل أخيه الحسن بن على ريحانة الرسول .

وأما السنة فهم يجلّون عليا ويعرفون له فضله وسبقه إلى الإسلام وعدله وعفته وشجاعته وزهده فيسمون باسمه وبأسماء ولديه ولا يتسمّون غالبا باسم من خرج عليه ونازعه حقه وأورثه الهم والحسرة حتى لقد كان يقول لنفسه متعجبا : أأعصى ويُطاع معاوية ؟

ولقد كان معاوية يطاع من أنصاره وهو من أسلم عام فتح مكة لأنه كان رجل دنيا يعطى ويمنح ويشترى الأنصار والأتباع . . ويرهِّب ويرغِّب ولا يتحرج من إنفاق أموال المسلمين فى أغراضه الدنيوية ، فى حين كان على يتحرج فى أن ينفق درهما إلا لمن يستحقه ، ولا يعد الناس بالدنيا وإنما بالآخرة .

وكان معاوية رجلا طويلا جميلا مهيبا نظر إليه عمر بن الخطاب يوما فقال : هذا كسرى العرب ، والحق أنه كان من دهاتهم الموصوفين بالحلم وطول الأناة ـ وقد أقام فى الشام أميرا لمدة عشرين سنة ، فقويت شوكته . ووقعت الفتنة الكبرى ، وقتل عثمان رضى الله عنه محاصرا صائما . . فإذا بالفرصة التى يحلم بها منذ صباه تأتية طائعة . . فقرر أن يغتنمها . . لكن كيف يبرر أطماعه وكيف ينازع عليا فى خلافته وهو من هو سبقًا وفضلاً وقرابة من رسول الله . . ؟ ولم يطل به التفكير فرفض أن يبايع عليا إن لم يسلمه قتلة عثمان ليقتص منهم . . ثم خرج عليه بدعوى طلب ثأر عثمان وجعل من قميصه الملوث بدمه رايته التى يستثير بها المشاعر ويعبئ لها الجيوش لقتال على . . ثم كان ما كان من قتال بينه وبين على فى صفين ثم خدعة التحكيم ثم قتل على كرم الله وجهه .

ثم إرغامه لابنه الحسن بالضغط والحيلة على التنازل له عن الخلافة فاستقر الأمر له وأقام خليفة عشرين سنة . . وعهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد اللاهى العابث فحولها بذلك لأول مرة إلى ملك عضوض وجمع له البيعة بالسيف والمال والدهاء ، وكثر شحمه ولحمه حتى كان أول من خطب الناس قاعدا لثقل وزنه . . ونسى دم عثمان وقميصه فلم

يعد يشغله ولا يرد له ذكر ، وساس ملكه بالدهاء والحيلة وتوزيع الأموال والقوة والبطش وفى أخريات أيامه باح لخلصائه بنيَّاته التى تخفت ذات يوم تحت قميص عثمان الدامى فقال لهم «ما زلت أحلم بالخلافة منذ قال لى رسول الله : إذا ملكت فأحسن» .

ولا يعلم إلا الله وحده إن كان رسوله الأمين قال له ذلك حقا وصدقا أم هى أكذوبة جديدة كان يتوسل بها ليضفى على أطماعه القديمة ثوبا مهيبا جليلا كثوب عثمان ودمه . .

فهل عرفت الآن . . لماذا لا تجد بين أصدقائك وأقاربك . . شخصا اسمه معاوية !؟

.. ولا أبالى !

كلما جاء شهر رمضان رجعت إلى الاستغراق فى كتب السيرة والفقه والتاريخ الإسلامى فلا أقرأ سواها حتى تنتهى أيام الشهر الكريم . أما «الذكر الحكيم» فهو رفيقى طوال أيام العام «أنظر» فيه كل حين . . وأجاهد لحفظ ما يسمح به العمر من «جواهره» . أعمل فى ذلك بنصيحة أحد الصالحين لتلميذه حين قال له : احفظ منه ما استطعت . . فإن عجزت فكن دائم النظر فيه ! وكذلك أفعل منذ سنوات طويله .

سعدت حين اكتشفت أننى ما زلت قادرا على حفظ بعض هذه «الجواهر» وعلى إضافة بضع أبيات جديدة من الشعر الرصين إلى محفوظاتى القديمة من حين إلى آخر وكنت قد ظننت أننى قد فقدت هذه القدرة مع تقدم العمر ووهن الذاكرة !

أردد لنفسى ما حفظت من «الجواهر» الجديدة من حين لآخر سعيدا بما «استطعت» وأتذكر فى كل مرة قول الرسول الكريم : «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» وأهتف لنفسى صامتا : صدقت يا رسول الله ـ وهل الصلاة الجهرية إلا تغنيا بالقرآن يطرب له القلب الخاشع !

قرأت فى السيرة العطرة أن الرسول الكريم كان يرتجز مع المسلمين وهم يحفرون الخندق ويرفع صوته مع المرتجزين أى المرددين، وكان هناك رجل اسمه جعيل فلم يرض الرسول عن اسمه وسمّاه عَمْرًا، فكان الرجال يرتجزون أثناء حفر الخندق كما يفعل أبناء الصعيد وهم يعملون بأعمال البناء، ويغنون:

سمّاه من بعد جعيل عَمْرًا

فيردد وراءهم الرسول الكريم رافعا صوته: «عَمْرًا»

ويرتجز المسلمون:

وكان للبائس يوما ظهرا

فيردد الرسول وراءهم: «ظهرا»

وفى هذا الجو البهيج راحوا يعملون ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يحفر معهم ويجرف الأرض ويسويها ويحمل الأتربة ويشاركهم الترجيع!

كلما ازداد الإنسان فهما لدينه ازداد إقبالا على الحياة وانتفاعا بها.. واستمتاعا بمتعها المشروعة العديدة، وقويت همته أيضا علىّ استثمار رحلته القصيرة فى الأرض فيما يقربه من ربه ويرشحه للسعادة الأبدية فى الدار الآخرة.

فمن أين جاءنا البعض بهذا التصور المريض للحياة وكأنها رحلة كآبة وجهامة وسواد وسكون وجمود و «موت».. فى انتظار الموت؟

إن دائرة المباح للإنسان فى الحياة عريضة، ونصوص القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد سخر للناس ما فى الأرض جميعا وما فى

السماء، ومن حقهم أن ينتفعوا بما سخره لهم إلا ما ورد النص صراحة بتحريمه وهو قليل من كثير وكثير، وليس من حق أحد أن يضيف إليه أو يوسع من دائرته فرسولنا الكريم يقول لنا: «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو.. فاقبلوا من الله عافيته فإنه لم يكن لينسى شيئا».

والمؤمنون هم ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ (الشورى: ٣٧).

وما عداها.. فالحياة متسعة.. والأرض واسعة لمن يريد أن يعمل ويستمتع ويفيد ويستفيد..

والمؤمنون الحقيقيون أهل عمل وعلم وإقبال على الحياة وتفاؤل بها وأهل بشر واستبشار وسماحة وعفو والتماس للأعذار للآخرين لا أهل مسارعة إلى إدانتهم والحكم عليهم.. ولا أهل كآبة وجهامة وكسل.

فقد كان رسول الله كما قرأت فى كتب السيرة طلق المحيا.. مشرق الوجه، دمث الطبع دون جفوة ودون رخاوة.

إذا خلا بنفسه تواصلت أحزانه وهمومه بدعوته، وإذا خرج إلى الناس تلقاهم بالبشر والترحاب وقال معلّما البشر: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة» وقال لهم «بشروا ولا تنفروا».

وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت السيدة عائشة رضى الله عنها.

وكان يحث المسلمين على «البَصَر بزمانهم» وفهم حقائقه ومراعاتها والتجاوب معها.. أى يحثهم على المعاصرة وعدم الجمود أو التحجر

أمام حقائق العصر فقال ـ صدق القائل ـ «رحم الله امرءا بصيرا بزمانه».

وقال لهم: عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، أى تَّعبدوا قدر طاقتكم ولا تسرفوا على أنفسكم فى شىء حتى لو كان العبادة.. بل اعتدلوا واعدلوا فى أمور دينكم ودنياكم.

تذكرت الآن قصة رويت عن العظيم عمر بن الخطاب، ولابد أن تتوقع منى أن أحدثك عنه فى هذا المجال وقد علمت عنى من قبل أنى مفتون بشخصيته، أما القصة فتقول: إنه جاء إليه وفد من أهل مصر يشكون إليه عدم التزام البعض بتعاليم دينهم الالتزام الكافى من وجهة نظرهم فتفحصهم قليلا ثم سألهم واحدا وراء الآخر: هل أنت ملتزم بتعاليم دينك كما تتمنى لنفسك؟

فأجابوه جميعا بالنفى، فنهرهم وقال لهم:

ـ إن الله يعلم أن سيكون لنا سيئات ثم قرأ عليهم قول الحق سبحانه: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ (النساء: ٣١).

وهذا حق لا ريب فيه فالأخطاء درجتان كبائر.. وصغائر أما الصغائر فتمحوها العبادات تلقائيا... وأما الكبائر التى تتفاوت بين عقوق الوالدين وشهادة الزور وأكل أموال الناس بالباطل والقتل فهذه وحدها هى التى لا يمحوها إلا صدق الندم والاستغفار.

ولا ينقطع رجاء بعد ذلك أبدا فى رحمة الله وعفوه وإن ثقلت الخطايا فى الميزان.. فهو القائل فى الحديث القدسى جل شأنه:

«يا بن آدم إنك إن دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقراب الأرض مغفرة» رواه الترمذى.

وحكمة قبول التوبة وإن ثقلت الخطايا حكمة تجل على أفهام البشر.. إذ ماذا يدعو الخاطئ للتطهر من خطاياه والكف عنها والعودة إلى الطريق القويم إذا علم وتأكد تماما أن باب السماء قد أوصد فى وجهه نهائيا مهما فعل أو كفر عن خطاياه؟!!..

وماذا يصيب الحياة من مثل هذا الخاطئ اليائس من أى أمل فى المغفرة إلا مزيدا من الخطايا والشرور؟

لهذا فتح الحق سبحانه وتعالى أبواب رحمته على مصراعيها تدعو الخائفين للدخول، وبهدى من هذا الإيمان الصحيح قال الإمام أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ « إن المؤمن بقلبه المذعن فى نفسه يكون مؤمنا عند الله.. وإن لم يكن كذلك عند بعض الناس».

والهدف من ذلك كله هو ألا ييأس أحد من رحمة الله فينطلق فى الحياة كالوحوش الضارية يوزع أذاه على الجميع، ولم لا وهو لا أمل له فى عفو ولا مغفرة إن توقف الآن عما يفعل؟!

إن الإنسان اليائس من الحياة تهون عليه الحياة ويسترخص الموت فيقع أو قد يقع فى هاوية الانتحار ويبوء بإثمه الذى لا يدفع أحد جريرته سواه، أما اليائس من رحمة الله فهو شر على الحياة كلها وعلى البشر الأبرياء الذين يدفعون رغما عنهم ضريبة هذ القنوط من رحمة الله.

ومن هنا كانت حكمة التوبة وأبوابها المفتوحة دائما ولو بعد فوات الأوان لكل العصاة.

والمؤمنون الحقيقيون يفرحون بتوبة التائب كما تفرح بها السماء ولا يعيِّرون أحدا بما كان منه فى ماضى الزمان.

وهم أهل ظرف وسماحة وذوق رفيع فى التعامل مع الآخرين وليسوا أبدا أهل غلظة وجفاء وكآبة وقتامة. يعملون ويتعبدون ويخدمون الحياة ويغرسون نخيلا لا تجنى ثمارة إلا الأجيال القادمة كما يحثهم على ذلك دينهم.. ويستمتعون بأوقاتهم وبالصداقة الخالصة لوجه الله ويروحون عن قلوبهم ساعة بعد أخرى حتى لا تكل قلوبهم، لأن القلوب إذا كلت عميت.. كما جاء فى الأثر.

تذكرت الآن فجأة قصة طريفة قرأتها فى كتب التراث تناسب هذا المقام: فلقد روت الكتب أن عبد الله بن رواحة كان يبيت ذات ليلة إلى جوار زوجته فى الليلة المخصصة لها فتسلل بعد نومها إلى زوجة أخرى له فوقع عليها، وانتبهت الزوجة الأولى من نومها فلم تجده إلى جوارها فنهضت غاضبة تبحث عنه وهى ممسكة بسكين فى يدها.. فإذا به عائد من الخارج كأنما كان فى الخلاء.. وسألته أين كان فتهرب من الإجابة. فأرادت أن تحرجه لتتأكد من شكوكها فطلبت منه أن يقرأ عليها بعض آيات الذكر الحكيم دون أن يغتسل أولا لأنها تعرف جيدا أنه لا يقرأه إلا المطهرون.. فلم يتردد ابن رواحة «وقرأ» عليها بعض أبيات الشعر العربى القديم مترنما بها كما يفعل من يقرأ القرآن الكريم.. فأدركت أنها «ظلمته» وقالت له: آمنت بالله.. وكذبت بصرى!

وفى اليوم التالى غدا ابن رواحة إلى رسول الله وروى له ما فعل

فضحك حتى بدت نواجذه ولم يعلق بشىء وضحك معه صحابته الأكرمون!

ولست أعرف لماذا تذكرت أيضا ما رواه الأستاذ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده، حين زاره ذات مرة فى دار الإفتاء فتأخر به العمل فيها طويلا حتى كادت الشمس تغيب، ثم خرجا معا فسارا على الأقدام واشترى الإمام بعض البسكويت وقدم منه لرفيقه و«جعل يأكل منه بلطف خلال سيره» على حد وصفه، فقال له صاحب المنار: أمفتى الديار يأكل فى الطريق؟!

فأجابه الشيخ الإمام: سئل الحكيم ديوجين: لماذا تأكل فى الطريق؟

فأجابهم: لأنى أجوع فى الطريق! ثم أضاف مبتسما: «فاتنا غداء البيت.. فلا بأس بأن نسد جوعنا حتى تصل إليه».

رحمه الله مصلحا عظيما أيقظ الشعور الدينى فى عصره ودعا المسلمين إلى تحكيم العقل فى أمورهم لأن الدين إنما عرف بالعقل، وحثهم على ألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم بل يبنوا حاضرهم ومستقبلهم متسلحين فى ذلك «بأكبر أسلحة الدنيا وهو العلم وبأكبر عُمدة فى الأخلاق وهو الدين».

.. غرقت فى بحور قراءات رمضان من «القفزة الأولى» مع أن أيام الشهر الكريم لم تكد تبدأ.. ولم نكد نتنسم نسائمه.. لكنه هكذا حال المحبين دائما يغيبون ويغيبون حتى يخيل إليك أنهم قد برئوا من الهوى فإذا تلاقوا هُيِّئ إليك من اللحظة الأولى أنهم لم يفترقوا من قبل لحظة واحدة.

أضاعوه.. وأى رجل أضاعوا !

لا أعرف لماذا لا يفكر التليفزيون فى تقديم مسلسل من مسلسلاته التاريخية والدينية العديدة عن الإمام الليث بن سعد .

إنه الإمام المصرى الوحيد بين الأئمة التسعة العظام الذين يعرفهم تاريخ الفقه ، ومع ذلك فإن كثيرين فى بلده لا يعرفونه ولا أمل فى أن يسمعوا به إلا من خلال التليفزيون الذى أصبح إطلالتهم الوحيدة تقريبا على التاريخ والمعرفة !

لقد قال عنه الإمام الشافعى : الليث أفقه من مالك غير أن قومه أضاعوه وأصحابه لم يقوموا به . وكان الشافعى قد جاء إلى مصر بعد اعوام من وفاة الليث يتلمّس فقهه وآثاره فلم يجد منها الكثير لأن تلاميذه لم يكتبوا بكل أسف تفسيره للقرآن والحديث ولم يسجلوا فقهه ، فى حين أخفى خصومه من القضاة والولاة الذين نقموا عليه اجتهاده ومراقبته لهم كتبه وطمسوا آثاره فاندثر مذهبه ولم يبق منه إلا القليل ، فقال الشافعى :

ما فاتنى أحد فأسفت عليه كالليث بن سعد .

ويبدو أن ماضينا فى إضاعة النوابغ من أبناء بلدنا عريق ، فلقد شيعت جموع غفيرة لم ير مثلها أحد فى الفسطاط من قبل الإمام

الراحل إلى مثواه الأخير وحزن لفقده كل فقهاء عصره خارج مصر وقال المسلمون فى كل أنحاء الأرض «ذهب سيد الفقهاء» وبكاه المصريون أحر البكاء لكنهم أضاعوه ولم يحفظوا آثاره فاندثر مذهبه وبقيت سيرته الفريدة تروى قصة هذه الفقيه المصرى النابغة للأجيال .

لقد ولد الليث فى قرية قلقشندة بمركز طوخ من أسرة عريقة وثرية سنة ٩٣ هجرية ، وكان والده عميد أسرة مصرية ثرية تنحدر من المصريين القدماء الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح العربى لمصر ، ومنذ طفولته المبكرة وجهه أبوه لتلقى العلم فتفرغ له تفرغا تاما ، فأجاد العربية والقبطية لغة أجداده واليونانية واللاتينية ، وبعد دارسة خاصة وعميقة انضم إلى حلقات العلم فى مسجد عمرو بن العاص فما إن بلغ السادسة عشرة من عمره حتى كان قد اهتدى إلى نظرة مستقلة فى الفقه تتخذ موقفا وسطا بين أهل الحديث الذين يتشددون فى التمسك بالنصوص وأهل الرأى الذين يتوسعون فى الاجتهاد والقياس ، وأعجب بنبوغه زملاؤه من الطلاب فالتفوا حوله وراح يذيع مذهبه بينهم وناقش فى ذلك أحد شيوخه من أهل الحديث المتشددين فنهره ، و ناقش غيره فاحتدوا عليه ، فقال كلمته التى ظل يرددها طوال حياته كلما جادل أحداً فى مسألة فقهية مُختلف حولها وهى : تعلموا الحلم قبل العلم . والتزم بذلك هو نفسه فكان مثالا للمحافظة على آدب الخلاف والالتزام به مع كل مخالفيه . وازداد إعجاب تلاميذه به وحثّوه على أن يتخذ لنفسه مجلسا فى جامع عمرو بن العاص ليفتى فيه الناس وهو فى السابعة عشرة من عمره ، بل شجعه أحد الشيوخ أيضا على

ذلك لكنه تهيب أن يجلس من الناس مجلس الفقيه قبل أن يبلغ من السن ما يؤهله لأداء هذه الأمانه ومن العلم ما يقنع به فقهاء عصره. وفى سبيل تحقيق هذه الغاية الشريفة قرر أن يتعلم من أئمة عصره خارج مصر فخرج للحج والعمرة وهو فى العشرين من عمره ثم زار المدينة ليلتقى بالفقهاء الذين كانوا يأتون إليها من كل الأمصار، وبحث عن الفقيه شهاب الزهرى وسمع منه وناظره وعرض عليه ما توصل إليه من نظر مستقل فى الفقه، وأعجب به الليث كثيرا فأكبره وأمسك له بركاب المطية حين يركب، وتعجب لذلك أحد أصدقائه لعلمه بمدى اعتزازه بنفسه فأجابه: للعلم أفعل ولغير العلم لا أمسك بركاب أحد!

وفى المدينة المنورة تعرف الليث بن سعد بمالك بن أنس فى حلقات الفقه، وكان شابا فى مثل سنه فلمس خلال اقترابه منه أنه يعانى الفقر فوصله ببعض المال وأصبح يبعث إليه من مصر كل عام بمائة دينار يعينه بها على طلب العلم. وظل مالك يتلقى عطاءه إلى أن أصاب فيما بعد عطاء الخلفاء ولم يعد فى حاجة لعطاء ذلك الوجيه المصرى الثرى.

وعاش الليث فى بلده حياة كريمة ينفق على نفسه عن سعة ويقول لمن يعترضون على ذلك: ﴿**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ (الأعراف: ٣٢). ويطعم كل يوم ثلاثمائة فقير عدا أصحابة وطلاب العلم، ويأتيه خراجه من ضيعة له فلا يدخله بيته وإنما يوزعه على الفقراء والمساكين. لهذا فقد عاش ما عاش ولم تجب عليه زكاة قط لأنه ما انقضى العام وفى يده من ايراد العام السابق دينار واحد.

وواصل القراءة فى علوم الشريعة والأدب واللغة والفلسفة والطبيعيات والرياضيات وواظب على الخروج إلى الحجاز كل عام تقريبا حاجا ومعتمرا ومناظرا للفقهاء ومضيفا إليهم ومتعلما منهم.

ويسمع به الخليفة المنصور فيستدعيه للقائه فى بيت المقدس.. فيعجب به أيما إعجاب ويعرض عليه أن يوليه أمر مصر فيعتذر بأنه إنما يريد أن يهب نفسه للعلم وحده. ويزداد إعجاب المنصور به حتى لينصح أهل العلم فى العراق والأمصار أن يذهبوا لمصر ليتلقوا عن هذا الفقيه المصرى النابغة. ويصدر أمرا للجميع بأن الليث بن سعد هو أفقه رجال عصره وأكثرهم تحريا للعدل، ولهذا فهو يفوضه أمر مصر فلا يُقضى فيها أمر إلا بمشورته وعلى واليها وقاضيها أن يعملا بذلك!

ولقد التقى الليث بالإمام أبى حنيفة.. واختلف معه فى كثير من الآراء، كما اختلف مع مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأحصى عليه سبعين مسألة وكاتبه فيها مبينا رأيه المخالف له فيها، فعدل مالك عن رأيه فى بعضها ولم يعد يفتى به، واتصلت الرسائل بينهما فكانت نموذجا رائعا لأدب الخلاف فى الرأى مع كامل الاحترام للطرف الآخر.

ولا مجال لإحصاء المسائل الفقهية التى أحصاها الليث على مالك أو اختلف فيها أبى حنيفة.. فكلٌ مصيب كما قال الأولون.. لكن المهم هو هذه الغيرة على الدين والعلم والاجتهاد بالرأى وحسن التدليل الذى تميز به ذلك الإمام المصرى ونظراؤه.

وعاش الليث حياة طويلة أثرى فيها العلم والفقه بآرائه وفتاويه، وراقب ولاة مصر وقضاتها مراقبة متشددة، فكان إذا أنكر منهم شيئا

دعاهم للرجوع عنه . . فإن استجابوا شكر لهم . . وإن تمادوا كتب للخليفة بعزلهم فيعزلهم بلا تردد ثقةً في عدله ونزاهته وتحريه الحق . . ثم مات سيد الفقهاء في الثانية والثمانين من عمره فبكاه المصريون . . وحزن لرحيله فقهاء الأمصار ، لكن تلاميذه تكاسلوا عن تدوين تفسيره للقرآن ، ثم جاء الولاة والخصوم فانقضوا على فتاويه ورسائله وأخفوها وطمسوها . . فضاع فقهه ولم ينتشر مذهبه عبر العصور كما انتشر مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة معاصريه .

وصدقت فيه كلمة الشافعي : الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه لم يقوموا به .

أي أبناء الملوك.. أنت !

أهمية أن يعرض التلفزيون مسلسلا عن زعيم زعماء الإصلاح الديني والسياسي هو أنه يتيح لمن لا يهتمون بالقراءة التعرف على هذه الشخصيات .

وحياة الإمام محمد عبده الذي عرض التليفزيون منذ بضع سنوات مسلسلا عنه حافلة بالمواقف التي تستحق التأمل ، منها أن هذا الإمام المجدد الذي كرس حياته لإصلاح العقيدة والمؤسسات الدينية وجعل هدفه الأسمى تحرير الفكر من قيد التقليد واعتبار الدين صديقا للعلم وداعيا إلى البحث في أسرار الكون ، ودعا إلى فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، وإصلاح اللغة العربية والرقي بها ـ هذا الإمام نفسه كاد يتغير مجرى حياته فانصرف عن التعليم إلى الزراعة وهو في الخامسة عشرة من عمره بسبب كتاب سخيف في النحو اسمه «شرح الكفراوي على الأجرومية» فقد استمع الفتى لدروسه لمدة عام ونصف العام في المسجد الأحمدي بطنطا فلم يفهم منه شيئا ، فاقتنع تماما بأنه ليس مهيئًا للعلم وأن من الأفضل له أن يشق طريقا آخر فهجر الدروس وفر من بلدته إلى بلدة أخرى بها بعض أقاربه وكل أمله هو أن

يحترف الزراعة ويجيد ركوب الخيل، فالتقى فى تلك البلدة بشيخ صوفى متنور، هدأ من روعه واستراحت إليه نفس الفتى ولم يعارضه حين دعاه برفق لأن يسمع منه شرحا على نفس الكتاب، وسمع الفتى فإذا به يفهم ما كان متعذرا عليه فهمه من قبل.

فهل عرفت إلى أى حد يمكن أن ينفِّر شرح شىء أو كتاب معقد أو تعليم فاسد طالبا للعلم حتى ولو كان مؤهلا للنبوغ.

ولعلك لاحظت أنى أشير إلى بعض المواقف غير الشهيرة فى سيرة حياته رغم أهميتها، أما مشاركته للسيد جمال الدين الأفغانى فى الدعوة للإصلاح ومحاربة الاستبداد ونفيه إلى بيروت، ومشاركته لأستاذه فى إصدار مجلة «العروة الوثقى» فى باريس وهمِّه بأمور البلاد الإسلامية وضرورة إصلاحها إلى حد أن يقترح على جمال الدين أن يستدعيا ثلاثين صبيا من كل الدول الإسلامية ويتوليا غرس مبادئ الإصلاح فى نفوسهم ليعودوا مؤهلين للزعامة والنهوض ببلادهم، أو فتاواه الجريئة الإصلاحية وهو مفتى الديار وخاصة ما عرف منها بفتاوى الترنسفال التى يسر بها على المسلمين فى جنوب إفريقيا بعض أمورهم، وتحمله لسخط المتزمتين وهجوم الخصوم السياسيين عليه، أو تصديه لمحاولات الخديو عباس التدخل فى شئون الأزهر وعرقلة إصلاحاته، وصموده فى وجه محاولات الخديو الحصول على بعض أراضى الأوقاف مقابل أراض غير صالحة من أملاكه، أو اعتزازه بنفسه وعلمه فى مواجهة المتكبرين والجهلاء إلى حد أن يداعبه أستاذه جمال الدين قائلا: قل لى بربِّك أى أبناء الملوك.. أنت؟ أو شكوى الخديوى عباس حلمى منه قائلاً: إنه يدخل علىّ وكأنه فرعون! أو تحمله لأذى

الخصوم وسخرية الجرائد الهزلية وافتراءاتها عليه وإصراره على المضى فى طريق الإصلاح رغم إلحاح بعض أصدقائه عليه ببعض الملاينة والمرونة قائلا: إن وجدانى الدينى لا يرضى بالصمت عن المفاسد!

أو موته وفى نفسه غصة من أنه لم ينل ما يستحق وما يريد، ورحيله عن الحياه وعمره ٥٦ عاما فقط شهدت كل هذه الأحداث.. فهذه كلها مواقف معروفة وشائعة للجميع ولا تحتاج إلى تكرار الاشادة والإعجاب بها.

نزهة.. فى النهر العميق !

القاهرة مساء الجمعة فى أحد شهور رمضان. جلست إلى مكتبى بالبيت بعد الافاقة من «إغماءة» كل مساء التقليدية عقب الإفطار لأكتب فلم أستطع الاستمرار طويلا. تذكرت أننى لم أشرب قهوتى الأولى بعد، فنهضت إلى المطبخ لأصنعها.. تحول موعد فنجان القهوة الصباحى إلى السابعة من مساء كل يوم فاستغرق الأمر بضعة أيام حتى تستعيد أجهزة الجسم توازنها وتتكيف مع المواعيد الجديدة. صناعة القهوة متعه فى حد ذاتها أحرص على ألا تفوتنى.. ولا أستمتع كثيراً بفنجان قهوة لم أصنعه بيدى. كنت مغرمًا بالقهوة التركية وأحتسى منها أربعة أو خمسة فناجين كل يوم. فوقعت منذ ٦ أو٧ سنوات فى غرام القهوة الفرنسية «الإكسبريسو» وأصبحت لا أشرب غيرها. ساعدنى على ذلك تحذير الطبيب لى من الإسراف فى تناول القهوة وسماحة لى بفنجانين فقط منها كل يوم. ولأن القهوة الفرنسية أخف تركيزاً من القهوة التركية.. فقد منحت نفسى فرصة سماح أخرى بفنجان ثالث، وهنأت نفسى على هذا «الذكاء» وتكتمت أمره عن الطبيب.. اشتريت منذ سنوات ماكينة قهوة إكسبريسو.. وحرصت منذ ذلك الحين على أن أحتفظ بمخزون مناسب من القهوة الفرنسية فلا تخلو حقائبى عند العودة من الخارج من بضعة أكياس

منها. أبدأ طقوس صنع القهوة كل مرة بتنظيف الماكينة ثم أضع البن فى المقبض وأرقب قطرات القهوة الجميلة تتساقط فى الفنجان وتصنع رغوة ذهبية بديعة فوق سطحه، أرجع بالفنجان إلى مكتبى سعيداً وأرشف قهوتى ببطء وتلذذ. كان الأديب الفرنسى العظيم أنوريه دى بلزاك يضع إناء صنع القهوة فوق النار إلى جواره وهو يكتب باستمرار فلا يكاد يفرغ فنجانه حتى يعيد ملأه.. فلا عجب أن كان يعمل ويكتب ست عشرة ساعة كل يوم تقريبًا ولا عجب أيضا أن مات فى سن الواحدة والخمسين!

فشلت فى الاستمرار فى الكتابه فمددت يدى إلى الكتب الموضوعة فوق مكتبى وقلبت فيها. أشترى الكتب الجديدة فأضعها فوق مكتبى وعلى مائدة صغيرة إلى جواره. فإذا انتهيت من قراءة كتاب حملته إلى أحد رفوف المكتبه وأحسست أننى قد كسبت صديقًا عزيزاً جديداً، لكن الكتب الجديدة تتراكم فوق المكتب حتى تكاد تحجبنى عن زائرى إذا جلس فى مواجهتى، وساعات القراءة مهما طالت لا تستطيع ملاحقة زيادتها التراكمية.. فمتى يتسع العمر لكى يقرأ الإنسان كل ما يريد قراءته ويعرف كل ما يريد معرفته؟

إنها حيرة أزلية.. ومشكلة بلا حل كنت أظنها مشكلتى وحدى حتى التقيت بصديقى الأديب الأستاذ فهمى هويدى، ببيت أحد الأصدقاء ذات يوم وسألته عن كتاب جديد كان قد صدر وقتها هل قرأه فأجابنى ساهمًا بأنه لم يجد الفرصة بعد لقراءته ثم أردف متحسراً أن الإنسان ليحتاج إلى عمرين إضافيين فوق عمره لكى يتمكن من قراءة كل ما ينبغى له أن يقرأه!

قلبت بعض صفحات مجموعة مجلدات الفتاوى الإسلامية التى تتضمن أهم ما صدر من فتاوى عن أعلام المفتين لدار الإفتاء المصرية منذ ١٨٩٥ حتى ١٩٧٨، وهى ١٥ مجلداً فى حوالى ٦ آلاف صفحة.. وتساءلت: ألا من طريقة سحرية ينتقل بها ما تحويه هذه المجلدات من معارف دينية ثمينة إلى عقلى ووجدانى بغير تجشم العناء الطويل لقراءتها واستيعابها؟ ألا يمكن مثلا أن أضع يدى على كل مجلد منها وأركز كل تفكيرى فيه فتسرى معارفه عن طريق اللمس كتيار من الكهرباء من يدى إلى عقلى.. فإذا بى قد «عرفت» و «استوعبت» كل ما فيه فى لحظة خاطفة؟

لو أمكن أن يحدث هذا ذات يوم لما بقى فوق الأرض جاهل. ولأصبح كوكب الأرض أكاديمية مفتوحة كأكاديمية أفلاطون لا يختلف البشر فيها حول أعراض الدنيا الزائلة وإنما حول المسائل الفكرية والفقهية والأدبية الراقية، فترى ماسح الأحذية مغرماً بأشعار فرجيل وحارس عمارة من المتعصبين لشعر المعرى وفلسفته التشاؤمية، وعامل نظافة من مؤيدى ابن رشد فى دفاعه عن الفلسفة ضد هجوم الإمام أبى حامد الغزالى عليها، ولرأيت الناس جميعاً وقد علت وجوههم سيماء النبل والرقى الفكرى لأنهم «يعرفون»، ولازداد عدد الأخيار فى الدنيا وقل عدد الأشرار.. فقد كان سقراط يعتقد أن الفضيلة هى المعرفة، وإنه لا يمكن أن «يعرف» الإنسان الخير ثم لا يفعله ولا يمكن أن «يعرف» الشر ثم يقدم عليه. وكان يرى أن ارتكاب الإنسان للرذيلة إنما يرجع إلى جهله بالفضيلة إذ لا يمكن أن يكون الإنسان فاضلا إلا إذا كان عارفاً بالفضيلة لكى يتبعها!

ورغم مثالية الفكرة فإن ذلك لا يقلل أبداً من أهمية المعرفة وأثرها الإيجابى فى تنفير البشر من الشر والرذيلة.

تذكرت وأنا غارق فى تأملاتى للفكرة الخيالية العجيبة لانتقال المعرفة للإنسان باللمس، قول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى وإنما ما وقر فى القلب وصدقه العمل»، فتنبهت إلى إنه لا مفر من «العمل» وبدأت جهادى مع مجموعة الفتاوى الإسلامية التى أقدر لها أن تستغرق منى ثلاثة شهور كاملة.

والإفتاء فى الدين مسئولية جسيمة إذا تذكرنا أن أول من قام بالإفتاء فى الإسلام هو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان يُفتى بوحى من الله سبحانه وتعالى كما تشير إلى ذلك آيات القرآن الكريم، وكانت الفتوى ينزل بها القرآن أو يخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم. ومن بعد الرسول الكريم تصدى للإفتاء الفقهاء من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. ولعظم خطرها كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ويتمنى كل منهم فى أعماق نفسه لو قام بها غيره فكفاه، فإذا رأى أنها قد وجبت عليه اجتهد فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو أقوال الخلفاء الراشدين، ثم أفتى فيما سئل عنه مستخيراً ربه.. وداعياً إياه أن يجنبه الزلل.

والإفتاء شرعًا هو بيان حكم الله فيما سئل عنه المستفتَى بمقتضى العموم والشمول.

ولأن المفتى نائب فى تبليغ الأحكام . . والإفتاء فى الدين أمر عظيم الخطر، فقد اعتبر الفقهاء المفتى وارث الأنبياء واشتدوا فى الشروط التى ينبغى أن تتوافر فيه قبل أن يجلس من الناس مجلس الإفتاء، فقالوا إن الفاسق لا يصلح أن يكون مفتيا لأن الفتوى من أمور الدين وقول الفاسق فى الديانات غير مقبول . . و قالوا أيضًا إنه لا ينبغى للعالم أن يفتى حتى يراه الناس أهلا للفتوى ويرى هو نفسه أيضًا أهلا لها وقد حرم الله القول فى أمور الدين بغير علم وجعل ذلك فى المرتبة العليا من التحريم، جاء فى التنزيل الحكيم مصداقًا لذلك: **﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغيرالحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾** (الأعراف : ٣٣).

وقال الرسول الكريم «من قال على ما لم أقل فليتبوأ بيتًا فى جهنم، ومن أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد فى غيره فقد خانه».

ومن شروط المفتى عند ابن القيم الجوزية «أن يكون عالما بما يبلغ صادقًا فيه، حسن الطريقة، مرضىَّ السيرة عدلا فى أقواله وأعماله، متشابه السر والعلانية فى مدخله ومخرجه وأحواله، وأن يعلم قدر المقام الذى أقيم فيه ولا يكون فى صدره حرج من قول الحق والصدع به فإن الله ناصره وهاديه».

ومن شروطه عند ابن حنبل رضى الله عنه أن تكون له نية، أى أن يخلص فى ذلك لله تعالى ولا يقصد بها رياسة أونحوها.

وأن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة وإلا لم يتمكن من بيان الأحكام الشرعية.

وأن يكون على معرفة بالناس أى أن يعرف نفسية المستفتِى ويدرك أثر فتواه وانتشارها بين الناس.

فالمفتى «البالغ الذروة» ـ كما يقول الإمام الشاطبى ـ هو الذى يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة ولا يميل بهم إلى التفريط.

ومن شروطه أيضًا ألا يتحرى الفتوى بالقول الذى يوافق هوى المستفتى.

وللفتوى بعد ذلك آداب تترتب على من يستفتى فى أمور دينه . . ومن يفتى فيها . . فأما آداب المستفتى فهى ألا يسأل فى دينه «من لا يُعتبر فى الشريعة جوابه» لأنه بذلك إنما يسند أمرًا إلى غير أهله وكأنما يقول له على حد تعبير الإمام الشاطبى فى «الموافقات»: أخبرنى عما لا تدرى!

أما آداب الفتوى من جانب المفتى فكثيرة أيضًا ومنها ألا يفتى بقول مهجورلمنفعة يرجوها، وأن يبين جوابه بيانًا يزيل كل التباس بشأنه، وأن يراجعه طويلا ويدققه قبل الجهر به، وأن يختصر جوابه ويكون بحيث تفهمه العامة، وألا يميل مع المستفتى أو مع خصمه، ولا يسوغ له إذا استُفتى أن يتعرض لجواب غيره برد ولا تخطئه، وإنما يجيب بما عنده من موافقة أو مخالفة دون تجريح لجواب غيره، وليس بمنكر فى آداب الفتوى أن يذكر فى فتواه الحجة إذا كانت نصا واضحًا مختصرًا وخاصة إذا كان يجيب بفتواه على فقيه، أما إذا كان يفتى عاميا فلا يذكر الحجة، والأولى به فى المسائل الخلافية أن يبين سند القول الذى أفتى به. أما آخر آداب الإفتاء وأهمها فهو أن يبدأ فتواه بالدعاء ببعض

الأدعية المأثورة طلبًا للتوفيق من الله تعالى واستشعاراً لخطر المهمة التى لو خير بين أدائها وبين الاعتذار عنها لآثر الاعتذار عنها !

وفى ذلك يقول الإمام أبو حنيفة «لولا الفرَق من الله أى الخوف من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً يكون له المَهْنأ . . ويكون علىّ الوزر» !

وفى ذلك أيضًا قال : «من تكلّم فى شيء من العلم وتقلّده وهو يظن أن الله لن يسأله عنه كيف أفتيت فى دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه» .

استمتعت بقراءة هذه المعلومات القيمة فى مقدمة المجلد الأول من الفتاوى بقلم فضيلة الإمام الراحل جاد الحق على جاد الحق حين كان مفتيا للديار المصرية ، وتوقفت طويلا أمام شرط آخر من شروط آداب المفتى يقول إنه إذا رأى للسائل طريقًا يرشده إليه فيما استشكل عليه فله أن ينبهه إليه ما لم يضر غيره ضرراً دون حق ، كمن حلف مثلا ألا ينفق على زوجته فيفتيه المفتى مثلا بدلا من أن يكفر عن يمينه ويفعل الخير كما قال ابن عباس ، بأن يعطيها قرضًا أو بيعًا ثم يبريها أى يسقط قيمة القرض أو ثمن البيع ويتنازل عنهما فيكون قد أنفق دون أن يحنث بقسمه أو يكفر عنه !

ومن ذلك أيضًا أن رجلا قال للإمام أبى حنيفة : حلفت أن أطأ امرأتى فى نهار رمضان ولا أكفر عن ذلك !

فأجابه أبو حنيفة على الفور : سافر بها !

فإذا بالمسألة الفقهية العويصة قد حلت فى ثوان وفى حدود أحكام الشرع والدين . . فالرجل إذا سافر بامرأته جاز له ولها الإفطار برخصة السفر وجاز لهما ما يشاءان فى نهار رمضان بلا إثم ولا حرج !

فهل رأيت ذكاء عبقريا . . كهذا الذكاء ؟

ذكرتنى هذه الفتوى المروية عن الإمام أبى حنيفة «بفتوى» أخرى له تثير فى النفس التأمل لتنطع السائل من جهة . . وذكاء المسئول من جهة أخرى .

فقد روى عن أبى حنيفة أن رجلا جاءه ذات يوم وقال له :

ـ إذا نزعت ثيابى ونزلت إلى النهر أغتسل فإلى القبلة أتوجه أم إلى غيرها ؟ فقال له أبو حنيفة :

ـ الأفضل أن يكون وجهك جهه ثيابك لئلا تسرق !

وابتسم مريدو الشيخ الإمام للإجابة الذكية التى تدين التحجر والوقوف أمام سفاسف الأمور ، واستشعر السائل الخجل من سؤاله !

وما زلت أقف على شاطئ نهر الفتاوى الإسلامية العميق أرشف أولى قطرات مياهه العذبة . . وأمنى النفس بملاحة فكرية طويلة وممتعة ومفيدة ، فادع لى بالسلامة وبلوغ القصد . . !

.. والحق أعزّ عليه منه !

كنت طوال حياتى شديد الإعجاب بالعبارة الشهيرة للفيلسوف الإغريقى العظيم أرسطو التى يقول فيها : أفلاطون صديقى وأستاذى لكن الحق أولى بصداقتى منه! وقد كان أرسطو يرددها معتذرا كلما وجد نفسه مضطرا للاختلاف مع بعض آراء أستاذه الفلسفية .

ولأننى قد آمنت فى حياتى الشخصية بهذا المبدأ فلقد حاولت جاهدا ـ وأرجو أن أكون قد وفقت قليلا فى ذلك ـ ألا أجعل لشخص صاحب الرأى أو مكانته عندى أى تأثير على اقتناعى بصواب رأيه أو خطئه وإنما أعرض رأيه على عقلى منفصلا عن شخصه فإن كان بادى الصحة اقتنعت به ولو كان صاحبه على خلاف شخصى معى ، وإن كان فاسد الحجة رفض عقلى التسليم بصوابه ولو كان صاحبه أحب الناس إلى أو أعز أساتذتى إلى قلبى ، فإن حاولت بعد ذلك أن أعطى للأستاذية حقها فإنى أقصر هذا الحق على الالتزام بما ينبغى الالتزام به من توقير للاستاذ عند مناقشة رأيه ، ناهيك عما يفرضه ذلك أصلا من التروى طويلا قبل رفض رأيه خشية التسرع فى الوقوع فى الخطأ وإجفالا من التهلل لمخالفة أستاذ من الأساتذة ، فإذا اضطررت بعد ذلك للمخالفة اخترت ما أراه وفقا لاجتهادى القاصر صوابا واعتذرت عن مخالفة أستاذى بعبارة أرسطو الشهيرة!

ولقد ظلت هذه حالى سنوات طويلة إلى أن قرأت فى بعض كتب التراث عبارة مشابهة تماما لعبارة أرسطو كان يرددها الفقيه ابن القيم الجوزية عن شيخه الهروى إذا ما اختلف معه فى بعض آرائه ، فقد كان يقول فى مواطن معارضته ، وسجل ذلك فى شرحه لكتاب الهروى «منازل السائرين » شيخ الإسلام ـ يقصد الهروى ـ حبيب إلينا عزيز علينا لكن الحق أحبُّ إلينا منه وأعز علينا منه . ثم يبدأ فى تفنيد ما رآه مجافيا للصواب من بعض آراء شيخه الكبير !

فازددت اقتناعا بأن الموضوعية لم تكن حكرا على العقل الغربى كما يحاول البعض دائما إيهامنا بذلك وأن توقير المشيخة والأستاذية لا يتعارض أبدًا مع حق الاختلاف معها فى الرأى بل إنه فى بعض الأحيان يصبح ضرورة أخلاقية وعلمية يعتبر النكوص عن أدائها بدافع الولاء الشخصى خيانة للحق وكتمانا للشهادة !

فما بالك إذن بمن يكتمون الشهادة ويخالفون الحق والضمير ،

ليس إجلالا للأستاذية وإنما نفاقا لقادر أو طلبا لمصلحة أو زلفى لمن بيده الضر والنفع ؟! .

العقل.. والحرية !

هذه صفحة من كتاب صغير الحجم عظيم القيمة اسمه « الحرية فى الإسلام» لمؤلفه الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، أجد من الأمانة العلمية أن أنقلها بالنص ـ ثم أقول لك بعد ذلك أننى أطرب كلما عدت لقراءتها لما تحمله من أفكار نبيلة تعكس الوجه الصحيح للإسلام فى وقت تختلط فيه الرؤى عند البعض . . وتشتد فيه المحاولات لتشويه وجه الدين الذى كرم الإنسان واحترم العقل وأرسى مبادئ الحرية فى العقيدة والفكر و الحكم.

يقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه :

«يقرر الإسلام أنه لا يجوز أن يُرغم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ (البقرة : ٢٥٦) . ويقول مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ (يونس : ٩٩). والاستفهام فى الآية الأخيرة كما لا يخفى عليك استفهام استنكارى بمعنى أنه لا يجوز لك أن ترغم الناس على الدخول فى دينك، و على هذا المبدأ

سار المسلمون فى معاملاتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى، فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وكانوا فى مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم. وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم . . لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صُلُبهم ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم» ويقول عمرو بن العاص فى معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر : «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص» .

ثم يستطرد الدكتور وافى فيقول «ومع أن الإسلام يجعل الرجل قواما على المرأة فى كل ما يحقق صلاح الأسرة والصالح العام فإنه لا يجيز للمسلم المتزوج من كتابية «يهودية أو نصرانية» أن يرغمها على ترك دينها بل لا يجوز له أن يمنعها من أداء عبادتها وشعائرها، بل إن بعض المذاهب ترى أنه ينبغى له أن يصحبها إلى حيث تؤدى هذه العبادات فى كنيستها أو بيعتها إذا رغبت فى ذلك .

فأى احترام لحرية العقيدة وأى تكريم للإنسان واعتراف له بحقه فى حرية الاعتقاد الدينى . . أكثر من ذلك ؟

ثم تأمل كيف أعلى الإسلام شأن العقل واحترمه ودعا إلى تحكيمه فى أمور الدين والدنيا .

يقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه القيم عن الحرية فى الإسلام:

«يقرر الإسلام أن الإسلام الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع. وبذلك حطم الإسلام القواعد التى كان يسير عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله، وهى قواعد التقليد والاتباع وأهمال النظر والتفكير الحر، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم، ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل؛ ومن ثم ذهب بعض علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح، واخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم واغفالهم جانب النظر والتفكير».

إلى هذا الحد دعا الإسلام إلى التفكير واستعمال العقل، حتى إن القرآن الكريم قد أشار إلى البصيرة وإعمال العقل عشرات المرات فى آياته، أما ما يقوله الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه المعروف باسم رسالة التوحيد واستشهد به أيضا الدكتور وافى فى هذا الفصل من كتابه.. فهو أكثر حسما ووضوحا من كل ذلك إذ يقول: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين. وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن رُبى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ولو كان صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يُذلَّل الإنسان للخير كما يُذلّل الحيوان بل القصد أن يرتقى

عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته».

فهل بعد ذلك من دليل على إعلاء قيمة العقل فى الإيمان؟!، وهل بعد ذلك من دعوة لأن نعقل ديننا ونتفكر فيه لكى نكون بذلك حقا من المؤمنين؟!.

زوجاتهم.. وزوجاتنا !

حدثنا القرآن الكريم عن زوجات الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . . وحدثنا عن امرأة فرعون الصالحة . . وحدثنا على الناحية الأخرى عن امرأتي نوح ولوط اللتين كانتا كما جاء في القرآن الكريم ـ تحت عبدين صالحين فخانتاهما ولم يؤمنا بهما وأذاعا أسرارهما ، وقال المفسرون إن خيانتهما لهما إنما كانت خيانة في العقيدة وليست شيئا آخر .

وحدثنا الرواة عن اختيار السيدة خديجة للرسول الكريم وهو شاب في الخامسة والعشرين يعمل في تجارة لها ، وإيفادها إليه من يذكرها عنده ويدعوه للتقدم لزواجها إعجابا بخلقه وأمانته وفضائله . . وحدثنا الرواة عن إكبار السيدة خديجة لزوجها الكريم وإحسانها معاشرته وتصديقها له حين جاءه الوحي وهبطت عليه الرسالة . . ورفقها به حتى هدأ روعه ثم تأييدها له قائلة : «والله لا يضيعك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتعين على نوائب الحق» . . وكيف هدأ بها روعه واطمأن قلبه وعاش معها في وئام وسلام تخفف عنه ما يلقاه من عنت المشركين وتشد أزره إلى أن لقيت وجه ربها راضية مرضية . وحزن الرسول على فراقها حتى سمي عام

وفاتها عام الحزن ، وحمل لها في قلبه ونفسه دائما أجمل الذكرى إلى أن انتقل إلى رحاب الله ، ورد عنها كلمة عابرة أملتها الغيرة على السيدة عائشة فقال لها مغاضبا : «والله ما أبدلني الله خيرا منها ؛ فقد آمنت بي حين كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء » . فحق للتابعين أن يسموها «خديجة الكبرى» تمييزا لها عن أي سيدة أخرى حملت اسم خديجة .

ولقد حدثنا الرواة أيضا عن أثر السيدة خديجة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحدثتنا السيدة عائشة عن الرسول في بيته وعن أحواله مع نسائه فعرفنا لهن قدرهن . . ولم يتحرج الرواة في تعريفنا بهن كما عرفنا من كتابات معظم الأدباء العالميين أثر زوجاتهم في أدبهم سواء كان أثرا إيجابيا أو سلبيا . . فعرفنا كيف شقي تولستوى بزوجته مثلا وكيف سعد آخرون برفقة زوجاتهم . أما أدباؤنا ومفكرونا فهم يحدثوننا في كل شيء وعن أي شيء إلا عن زوجاتهم وأثرهن في حياتهم وأدبهم . . ولولا أن كتب طه حسين في الجزء الثالث من كتابه الأيام عن زوجته السيدة سوزان وأصدرت هي كتابا اسمه «معك» لما عرفنا الكثير عنها . . تماما كما لم نعرف شيئا عن زوجات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ويوسف أدريس وأنيس منصور وزكي نجيب محمود وحسين مؤنس وغيرهم من أعلام الأدب والفكر .

. . فماذا يعني هذا التجاهل ؟

هذا الرجل العظيم !

بعض الكتب تحس بالندم لأنك لم تتعرف عليها من قبل . . ومن هذه الكتب كتاب اسمه المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى لم أكتشفه بكل أسف إلا منذ سنوات قليلة !

إنه كتاب يرتب ألفاظ القرآن الكريم ترتيبا أبجديا على غرار المعاجم اللغوية المعروفة . . وعن طريقه تستطيع بمجرد تذكر كلمة واحدة من ألفاظ القرآن الكريم أن تكشف عنها فى موضعها فتجد أمامها نص الآيات التى وردت بالقرآن وتتضمنها وبيانات عن هذه الآيات ، بل عدد المرات التى وردت فيها الكلمة فى القرآن الكريم .

ولن تستطيع أن تتخيل المشقة التى تكبدها مؤلف هذا المعجم إلا إذا قرأت ما كتبه فى خاتمة كتابه من أنه قد انتهى من إعداده يوم ٧ أغسطس ١٩٣٨ ، ثم وكما يقول بالحرف الواحد : استغرق تبييضه ومراجعته المراجعة النهائية على المصحف الشريف حتى ١٧ نوفمبر ١٩٤٥ . . والحمد لله أولا وأخيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» !

فإذا كانت مراجعته قد استغرقت حوالى سبع سنوات فكم من الزمن والجهد تكلفه إعداده ؟

لم يقل لنا المؤلف العظيم شيئا عن ذلك للأسف . . كما لم يقل لنا شيئا عن شخصيته ولا عن دراسته . . ولا عن إجادته للفرنسية التى سوف تتضح حين نكتشف أن له كتابا مترجما عنها لا يقل خطورة ولا أهمية . . إذ كنت ذات مرة أتحدث عن انبهارى بشخصية هذا العالم الكبير مع صديق قديم . . فأهدانى اكتشافا جديدا هو أن قال لى إن مؤلف المعجم قد ترجم أيضا عن الفرنسية كتابا وضعه العالم الفرنسى الكبير جول لابوم يرتب فيه آيات القرآن الكريم حسب موضوعاتها بحيث تجد فى باب النظام الاجتماعى مثلا كل الآيات التى تتعلق به . . وفى باب العبادات كل الآيات المتعلقة بها وهكذا ـ فأسرعت باقتناء الكتاب فإذا به كنز آخر ثمين لكننى لم أجد فيه أيضا أية معلومات عن شخصية مؤلف المعجم سوى ما ذكره عن نفسه فى نهاية معجمه من أنه : محمد فؤاد عبد الباقى ابن المرحوم عبد الباقى بك صالح ابن المرحوم الحاج صالح محمد !

ويبدو واضحا من جهده فى المعجم وفى ترجمة الكتاب الآخر أنه واحد من هؤلاء الأساتذة المجهولين الذين نذروا أنفسهم للعلم والمعرفة وتعريف الناس بدينهم لا يبتغون من وراء ذلك مالا ولا شهرة . . ولا ينتظرون أجرا إلا من خالقهم عما قدموه . . . وتأمل معى ما كتبه عن أسباب تأليفه للمعجم ومنهجه فى تأليفه لتتأكد من ذلك . .

«ووالله ما أقدمت على وضعه وإرهاق نفسى وإضناء جسمى وإنهاك قواى فى عمله والدأب فى ترتيبه وتنسيقه وإعادة مراجعته مرات متعددات إلا حين أيقنت من شدة الحاجة إليه وفقدان ما يسد مسده مما ألف فى بابه . وإذ كان خير ما ألف وأكثره استيعابا فى هذا

الفن دون منازع ولا معارض هو كتاب «نجوم الفرقان فى أطراف القرآن» لمؤلفه المستشرق الألمانى فوجل الذى طبع لأول مرة ١٨٤٢، فقد اعتضدت به وجعلته أساسا لمعجمى، ولما أجمعت العزم على ذلك راجعت معجم فوجل مادة مادة على معاجم اللغة وتفاسير الأئمة اللغويين وناقشت مواده حتى أرجعت كل مادة إلى بابها، ولم أقنع من نفسى بذلك بل اخترت لجنة من أجلّة العلماء المغايير «يقصد الغيورين على الدين والعلم» وصفوة الأصدقاء المخلصين، عرضت عليهم فيها مواده مادة مادة.. فما كان بادى الصحة أقروه، وما خفى عليهم وجه الصواب فيه فزعنا إلى المعاجم نستوضحها.. وإلى التفاسير نستلهمها».

ترى أين اختفى أمثال هؤلاء «المغايير» فى مجالات كثيرة من مجالات العلم والعمل.. فى حياتنا الآن ؟

المائة الأعظم !

هذا كتاب عظيم أحب أن أعرفك به.

إنه كتاب للدكتور حسين أحمد أمين يعرض فيه على طريقة المعاجم والموسوعات لمائة شخصية يعتبرها المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام.

ومقاييسه فى هذا الاختيار هى مدى إسهامهم فى الحضارتين الإسلامية والعالمية، ويبدأ بالطبع بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ثم تتنوع بعد ذلك الشخصيات بين خلفاء وملوك وولاة ووزراء وقواد ومؤرخين ومحدثين وفقهاء ونحاة وشعراء وأدباء وعلماء وأطباء وفلاسفة ومتصوفين وجغرافيين ورحالة وموسيقيين ومغنين !

وقد قدم الدكتور حسين أمين ـ المعروف بسعة اطلاعه على التراث القديم وجرأته الفكرية ـ لمؤلفه المهم بتحفظ هام على ما قد يثور من جدل أو اعتراض على انتقاء شخصيات دون أخرى فقال إن اختياره فى النهاية ليس سوى تقدير شخصى من جانبه وإن كانت له أسسه الموضوعية، كما أن حرصه على تنوع الإسهامات الحضارية قد اضطره أحيانا إلى إغفال بعض الشخصيات المهمة لمجرد تشابه إنجازاتها مع إنجازات شخصيات أعظم منها، وضرب مثلا لذلك باضطراره إلى حذف شخصية مهمة كنور الدين محمود صاحب حلب ودمشق الذى

كان مثلا للحاكم الفاضل وتصدى للحملة الصليبية الثانية، وقد حذفه الدكتور أمين لتشابه إنجازاته مع إنجازات شخصية تفوقه عظمة هى شخصية صلاح الدين الأيوبى.

ومن ناحية أخرى فقد اختار الدكتور حسين أمين ألا يرتب شخصياته فى مجموعات نوعية كالخلفاء والفقهاء والقادة والفلاسفة إلخ، وإنما قام بترتيبها زمنيا اعتمادا على تاريخ وفاتهم، وقسم كتابه إلى فصول يعرض كل فصل منها لعظماء قرن من قرون الزمان.

لكنه لسبب لا أعلمه لم يرتب فصوله وفقا للتاريخ الهجرى بل حسب التاريخ الميلادى وأغفل إثبات التواريخ الهجرية عند الإشارة لميلاد الشخصية ووفاتها، فأعْسَر بذلك على من يرغب فى معرفة المزيد عن شخصياته فى المراجع الأخرى.. وليس يقلل من ضرر ذلك أنها كلها شخصيات معروفة لأن كتب التاريخ الإسلامى وكتب التراجم المعروفة تعتمد على التاريخ الهجرى وحده ويصعب على البعض مقابلته بالتاريخ الميلادى بغير عناء.

على أية حال فإن ذلك لا يقلل أبدا من الجهد العلمى الموفور الذى بذله الدكتور أمين فى تأليف كتابه هذا.. وليته يستكمله كما وعد فى مقدمته بعرض المائة الثانية والمائة الثالثة والرابعة.. فى كتب أخرى على غرار كتب «الطبقات» الكبرى المعروفة فى التراث القديم.

والشخصيات الأعظم فى القرن السابع الميلادى هى كما جاءت فى كتابه: محمد عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق، وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب، ونلاحظ هنا أنه قد أورد خالدا قبل عمر مع أن عمر بن الخطاب أسبق إلى الإسلام من خالد بن الوليد وفضله

وعدله وشدته فى الحق غير منكورة، لكن الدكتور أمين تحدث عن خالد فى الحلقة الثالثة قبل عمر ربما لأنه كما يقول: أشهر قادة الجيوش فى تاريخ الإسلام كله ولعب دورا بارزا فى الفتوحات الإسلامية وتقبل أمر عمر بعزله خوفا من افتتان الناس به عن طيب خاطر. لكنه ما أن يبدأ تقويمه لعمر فى الفصل التالى حتى نراه يرفعه إلى ما يستحقه من ذرى عالية، فهو كما يقول: «يحتل فى رأى الكثيرين المرتبة الثانية بعد النبى فى قائمة عظماء التاريخ الإسلامى، وهو حكم الدولة الإسلامية بعد وفاة أبى بكر عشر سنوات فعرف أثناءها بما اشتهر به دائما من مضاء فى العزيمة وعدل فى القضاء وحدة فى الطبع وورع لم تفسده السلطة وبساطة بل تقتير فى العيش لم يضعهما ذلك السيل من الثروات والأموال التى تدفقت مع الفتوحات الإسلامية».

ثم يقول عنه بعد الإشارة إلى موقف الشيعة منه حيث تراه قد أفسد بموقفه يوم اجتماع السقفية على على بن أبى طالب الخلافة بعد وفاة الرسول، وموقف الصوفية منه التى تراه رجلا واقعيا إلى أبعد حدود الواقعية «فإن الغالبية العظمى من المسلمين السنيين من وقته ذاك حتى يومنا هذا تراه مثلها الأعلى فى الحكومة والزهد والعدل وصلابة الإرادة... كما أن عهده هو العصر الذهبى فى تاريخ الإسلام».

وبعد عمر يأتى على بن أبى طالب، وفضله لا يحتاج إلى تكرار الإشارة إليه، أما سادس شخصية فهى شخصية عمرو بن العاص فاتح مصر فى عهد عمر وأحد دهاة العرب المعروفين، ثم يضع المؤلف فى المرتبة التالية شخصية تثير الجدل عند الحديث عنها هى شخصية زياد بن أبيه، لكن تبرير ذلك عنده هو أنه من أهم الولاة وأعظم الإداريين فى

تاريخ الإسلام، وأنه قد راوح دائما بين استخدام العنف والحيلة فى إخضاع الثائرين لسلطة الخلافة الأموية وكان جادا كل الجد فى أدائه لواجبه دائما .

ومن بعده يأتى معاوية مؤسس الدولة الأموية، وعنه يقول أنه ظل حتى يومنا هذا رمزا لمفهوم «السيد» عند العرب ومضرب الأمثال فى الحلم والدهاء والتسامح والشهامة وضبط النفس والعفو عند المقدرة، كما لم يحدث أن أخفق فى أمر أراده أو عجز عن بلوغ مرام قصده . . . غير فتح القسطنطينية!

ثم يجىء بعده عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى وهو أعظم خلفاء بنى أمية بعد معاوية لأنه أعاد للدولة الأموية وحدتها وأنقذها من التفكك ووسع من حدودها شرقا وغربا .

وبه ينتهى عظماء القرن السابع الميلادى عند الدكتور حسين أحمد أمين . . وعلى هذا النهج فى الانتقاء الجرىء للشخصيات الذى يصل أحيانا فى بعض الفصول الأخرى إلى حد مصادمة الأفكار الراسخة عند كثيرين . . يمضى المؤلف فى استعراض عظمائه على مدى التاريخ .

طوق الحب!

وجدت فى بريدى رسالة يعترض كاتبها على عمل المرأة من ناحية المبدأ ويطالب بعودة كل النساء إلى خدورهن! فقفز إلى ذاكرتى على الفور ذلك الرأى الجرىء الذى أعلنه الإمام ابن حزم الأندلسى الذى عاش بين سنتى ٣٨٤و ٤٥٦ هجرية ! حين كتب يقول إنه لا يثق بالمرأة إن لم يشغلها علم أو عمل !

لماذا ؟

يقول ابن حزم إن المرأة التى لا يشغلها العلم أو العمل تكون متفرغة البال للرجال! لهذا فلا بد من أن يكون لها عمل ابتداء من أعمال البيت ورعاية الأطفال إلى أى عمل آخر مفيد للأسرة والمجتمع، أو علم تشتغل بتعلمه وتدارسه وتعليمه لغيرها . . وضرب مثلا على صدق نظريته بأن أحد ملوك السودان الأقدمين كان يفرض على نسائه ضريبة من الصوف يشتغلن بها أبد الدهر . . وكلما انتهت واحدة كلفهن بأخرى وهكذا إلى ما لانهاية . . وقال الملك تبريرا لذلك إن المرأة بدون «شغل» يشغلها تتشوق إلى الرجال !

وابن حزم صاحب هذا الرأى هو الإمام الوحيد بين أئمة الفقه الكبار الذى كتب فى الحب وأحوال العشاق، وكان لنشأته أثر كبير فى ذلك فلقد كان أبوه وزيرا ويعده لأن يصبح وزيرا مثله فاختار له ألا تعلمه إلا النساء خوفا عليه من فساد الرجال، فتلقى ابن حزم العلم على يدى معلمات من الجوارى القارئات الفقيهات . . وتربى كما قال هو عن نفسه فيما بعد فى «حجور النساء» حتى بلغ سن الشباب، وأتاح له ذلك معرفة أحوالهن وأسرارهن فكتب عن هذه المرحلة من حياته . ومن بين مؤلفاته الأربعمائة كتب كتابا جميلا عن الحب اسمه «طوق الحمامة فى الألفة والإيلاف» . . ورغم رقته المتناهية فيه فلقد اجتمع فى شخصيته النقيضان . .

إذ لم يعرف الفقه قبل ابن حزم رجلا كتب فى الحب وأحوال العشاق بمثل هذه العذوبة والرقة التى كتب بها كتابه . ولم يعرف الفقهاء قبله أيضا رجلا جادلهم فيما يختلف فيه معهم بمثل تلك الحدة والعنف والقسوة !

حتى لقد وصفه أحد أصدقائه فقال عنه إنه «قد أوتى العلم كله . . لكنه لم يؤت سياسة العلم ؛ ذلك أنه كان يصك مخالفيه صك الجندل للوجه !» أى كما يصك الصخر وجه إنسان ارتطم به !

أما «سياسة العلم» التى يقصدها ذلك الصديق فهى ما يمكن أن نسميه احترام آراء من نختلف معهم . . والاعتراف لهم بحقهم فى الاختلاف معنا . . والفصل بين الرأى وبين شخص قائله فنختلف مع الرأى ونبين فساده بغير أن نمس شخص قائله أو نكيل له الاتهام .

ولم تكن تلك سياسة ابن حزم مع مخالفيه، فقد كان يقسو عليهم ويتهمه بالجهل وقلة الدين وارتكاب أفظع الأخطاء . . ولم يلن إلا حين كتب عن الحب والمحبين فسال قلمه رقة وعذوبة وهو يصف أحوالهم . . وبالرغم من ذلك فإنه لم يغير رأيه فى المرأة . . فطالب لها بالعلم وبالعمل !

النشيد العظيم !

يا سبحان الله !

كم مرة نطق لسانى بهذه العبارة المألوفة ؟

آلاف المرات بغير شك وربما مئات الألوف ، فنحن نرددها فى مواقف الحياة المختلفة ، فنقولها حين نعجب بصنعة الخالق العظيم فى شىء . . وحين نتأمل حكمته فى بعض المواقف . وحين نتعجب لأمر . . وحين نستنكره أيضا .

ولكن هل توقف الإنسان ذات مرة ليتأمل هذه العبارة البسيطة ويستجلى كل معانيها؟

حين أديت فريضة الحج منذ سنوات أذكر أننى فى أيام رمى الجمرات بمنى كنت مع من معى ننتظر مغيب الشمس حين تنخفض درجة الحرارة اللاهبة بعض الشىء فنخرج من البيت الذى نقيم فيه ونتوجه وسط زحام الحجيج الذين جاءوا من كل مكان ، لنرمى الجمرات على الشاهد الذى يرمز للشيطان الرجيم ونرجع من حيث جئنا ، وفعلنا ذلك فى اليوم الأول والثانى وجاء اليوم الثالث وكانت الحرارة فيه كالسعير . . و«الأرض» تنفث لهبا . . والشمس تصب شرراً حارقا ، فاعتصمنا بالبيت طوال النهار نؤدى صلاتنا وننتظر مغيب الشمس

آخذين بالرخصة والتيسير الذى يسره علينا علماؤنا الأجلاء مؤكدين جواز الرمى فى أى وقت من الليل والنهار ، ومن الفجر إلى الفجر ، لكن الكثيرين كانوا كعهدهم منذ قديم الزمان يفضلون أن يخرجوا للرمى عقب صلاة الظهر فى عز الشمس الصاعقة طلبا لمزيد من الأجر والثواب ولأن الرسول الكريم قد رمى فى ذلك الوقت من النهار ، وكنت قد فرغت من صلاة الظهر حين نادانى رفيق من رفاق الحج لأنظر من نافذة خلفية إلى الجسر الذى يؤدى إلى مكان الرمى واعدا إياى بأننى سأرى مشهداً يقشعر له جسمى ، وتبعته إلى حيث قادنى واعتليت النافذة ونظرت فإذا برجفة تسرى فى بدنى . . وإذا بى أجدنى أهتف بغير وعى ، وفيما يشبه الهستريا : سبحان الله العظيم . . سبحان الله العظيم . . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . . فقنا عذاب النار ، وأكرر هتافى بلا وعى .

حتى جاء الإخوان وأطلوا إلى جوارى من النافذة . . فلم يجد كل منهم ما يعبر به عما رآه سوى ما صدر عنى تلقائيا من تسبيح بعظمة الخالق وعلوه جل شأنه . . فلقد رأيت بحرا من البشر فى بياض الثياب لو رششت عليهم الملح من طائرة لما سقط من بين أجسامهم إلى الأرض ، يسعون فى اللهيب الحارق إلى مكان رمى الجمار معرضين أنفسهم للهلاك بضربة الشمس لينالوا سبق الرمى فى وقت الفضيلة . . ويقع منهم من يقع مغشيا عليه من الحر والإجهاد . . ويقع من يقع منهم مصروعا بضربة الشمس فلا تحميهم مظلة يرفعونها فوق الرءوس من اللهب الحارق . . ولا يمنعهم حر ولا خوف من الهلاك ولا يردهم تحذير الأطباء . . ولا رجاء علماء الدين لهم بألا يشقوا على أنفسهم بالرمى فى هذا الوقت من النهار ـ والفضليات والأفاضل من الحجيج

المقـيمين فى بعض الدور المطلة على الطريق يقـفـون فى النوافـذ والشرفات يفتحون على الساعين إلى الرمى والعائدين منه زجاجات المياه المثلجة عسى أن تسقط المياه على رؤوسهم فتبرد بعض لظاهم . . و يلقون إليهم بزجاجات المياة الغازية والعصائر والمياه المثلجة عسى أن ينقذهم ذلك من الجفاف والهلاك ، وأصحاب الفضل من بعض السراة قد جاءوا بعربات الثلاجات الكبيرة مكتوبا على كل منها : سقاية فلان ابن فلان راجى عفو ربه ، وهى ممتلئه عن آخرها بعلب العصائر وزجاجات المياة المعدنية المثلجة . . يلقون بها إلى الحجيج جزافا ويحثونهم بل ويتوسلون إليهم فيما يشبه الرجاء أن يشربوها ليعوضوا أجسامهم ما فقدته من سوائل قبل أن تحل بهم غشية الجفاف ، فمن سقط منهم على الأرض منهارا رشوه بالمياه المثلجة . . ورفعوا رأسه ليعينوه على شرب العصائر وهم يحدبون عليه . . و يشجعونه . . ويعينونه على أمره . . والقادم إلى رمى الجمار ومعه زجاجة مياه يبادر العائد المجهد منه بنضح المياه فى وجهه وعلى رأسه بغير طلب منه ، ويقدم له ما معه من مياه ليشربه وهو يعلم أنه قد يحتاج إليه ، فكان هذا المشهد المؤثر هو الذى أطلق لسانى رغما عنى بعبارة التسبيح فيما يشبه الذهول .

فى طفولتنا كنا حين نسمع قرقرة القطة وهى مسترخية فى اطمئنان ناعس فى ليالى الشتاء نسأل الكبار عن تفسير هذا الصوت الباطنى المبهم الذى يصدر عنها . . فيجيبنا الكبار بأنها تسبح لربها . . بلغتها التى لا نفهمها ، فنطمئن إلى هذا التفسير ونستريح إليه ، وأحببنا طائر الكروان واستبشرنا به وبترجيعه حين ترجمه لنا الكبار بأنه يسبح لربه . . ويهتف : الملك لك . . لك . . لك . . لك فى كل ترجيع له .

ثم تفتحت بعض مداركنا فى مرحلة الصبا أو هيئ لنا ذلك . . فسخرنا مما ظنناه جهل الطفولة ، وضحكنا من أنفسنا حين صدقنا تسبيح القطة لربها والكروان لخالقه . . وتقدم بنا العمر . . والتمسنا بعض نور المعرفة فإذا بنا نكتشف أن ما ظنناه من جهل الطفولة إنما كان من فطرة الإنسان السليمة . . وأن القطة والكروان والطير والنبات والجماد والسموات والأرض والجبال ، إنما تسبح كلها حقا وصدقا بعظمة الخالق العظيم وعلو شأنه فى الحقيقة . . وليس فى المجاز ، وأن الجميع إنما يشتركون فى «كورال» كونى مهيب يسبح لخالق الكون وينزهه . . ويقدسه ، فخفق القلب ونحن نقرأ قول الحق فى التنزيل العزيز : ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا**﴾ (الإسراء : ٤٤) ، وقوله تعالى : ﴿**يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد**﴾ (التغابن : ١) . . . إلخ .

وأذكر أننى قد تأملت صديقا مصريا متدينا يقيم بالولايات المتحدة ، ذات مرة منذ عامين وهو يختم صلاته بالتسبيح لعدة دقائق وكنت خلال ذلك أجلس إلى جوار نافذة مسكنه هناك أرقب مشهدا طبيعيا جميلا لقناة بحرية تحف بها الأشجار والخضرة الزاهية . . وتحلق فوقها طيور النورس البديعة ، فوجدتنى أقول له فجأة : أتدرى أنك فى هذه اللحظة عضو فى كورال كونى رهيب يرجّع تسبيحك للخالق العظيم فى اللحظة نفسها وبكل لغات البشر بل لغات الطير والحيوان والإنس والجن والملائكة معا؟ فتساءل باسما : أجدٌ ما تقول أم دعابة ؟ فنهضت إلى مكتبته هو وأخرجت منها أحد أجزاء موسوعة المرحوم الأستاذ سيد

قطب القرآنية العظيمة «فى ظلال القرآن»، ثم فتحت صفحاتها على تفسير سورة الإسراء وقرأت عليه قول الحق بشأن تسبيح ما فى السموات الأرض للخالق العظيم، وقرأت عليه وهو مشدوه وصف الأستاذ سيد قطب لهذا النشيد الكونى الدائم ليل نهار حين قال: «إنه مشهد كونى فريد حين يتصور الإنسان كل حصاة.. وكل حجر.. وكل حبة.. وكل ورقة.. وكل زهرة.. وكل ثمرة.. كل نبتة.. كل شجرة.. كل حشرة.. كل زاحفة.. كل حيوان وكل إنسان.. كل دابة على الأرض وكل سابحة فى الماء والهواء ومعها سكان السماء.. كلها تسبح لله وتتوجه إليه فى علاه. إن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب فى كل ماحوله مما يراه ومما لا يراه وكلما همت يده أن تلمس شيئا، وكلما همت يده أن تطأ شيئا.. سمعه يسبح لله وينبض بالحياة»!

ترى لو تمثل الإنسان هذا النشيد الكونى الجماعى.. واستشعر رهبته أتطيعه يده حقا إذا مدها بالأذى إلى إنسان أو جماد مملوك لغيره أو طائر جميل.. أو ورقة شجرة.. أو حيوان أليف؟

وأيكون هذا هو سر كراهية بعض الصوفية لقتل النمل ولو تكاثر فى بيوتهم حتى لقد صاح أحدهم بمن وطأ بعض النمل فى بيته: قتلت جمعًا كان يسبح لخالق الكون العظيم كل لحظة؟!.

وأيكون هذا هو سر هذه العبارة الفريدة التى أُثرت عن أحد رهبان الغرب فى القرن الثامن عشر حين كان يناجى الطير مستشعرا وحده الوجود والكائنات كلها فيقول له: أخى الطير! إننا نعرف رعد السماء كظاهرة طبيعية.. ونعرف أنه صوت مخيف يدوى عقب وميض البرق

فى السماء، وينتج عن تصادم أو التقاء سحب مشحونة بشحنات كهربائية سالبة وموجبة فيصدر عنها شرر البرق.. وصوت الرعد.

والمعرفة تنفى الجهالة كما يقولون.. والإنسان يخشى دائما ما يجهله، فإذا عرفه وعرف أسبابه زالت عنه رهبته إلى حد كبير.. فهل يستطيع أحد يفسر لى لماذا مازلنا نشعر بهذه الرهبة الغامضة حين يدوى صوت الرعد فى السماء؟!.

لقد وجدت بعض تفسير ذلك، حين قرأت قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ (الرعد: ١٣)، فأدركت لأول مرة لماذا ينتابنى هذا الإحساس الغامض بالرهبة والخوف كلما سمعت رعد السماء.. وأنه ليس فقط صوت يدوى فى السماء عقب البرق.. وإنما هو أيضا تسبيحة كونية مهيبة للخالق العظيم ترتج لها السماء وتنخلع لها قلوب البشر الضعفاء؟ فكيف لا يخاف الإنسان الضعيف ممن خافته الملائكة وهم أهل الطاعة المطلقة؟

تعجبت طويلا من خيفة الملائكة لربهم وهم أهل الطاعة الذين أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يسجدوا لآدم وهو من تراب فصدعوا بالأمر وسجدوا له إلا أبليس أبى واستكبر ولم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن، وبهذا المفهوم فلقد كانت الملائكة أحق المخلوقات بالطمأنية.. فماذا يخيفهم من ربهم جل شأنه؟

يقدم لنا المرحوم الأستاذ سيد قطب تفسيرا جميلا لذلك فيقول.. إن الملائكة لا ينقطعون عن تسبيحهم ربهم لما يحسون من عظمته وجلاله ولما يخشون من التقصير فى حمده وفى طاعته.. بينما أهل الأرض يقصرون وينكر بعضهم وجود الخالق العظيم فتشفق الملائكة

من غضب الله ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع فيها من معاص وتقصير، كما يستغفرون أيضا للذين آمنوا مصداقا لقوله تعالى: ﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض**﴾ (الشورى: ٥) وقوله تعالى ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ (غافر: ٧).

وليس الملائكة وحدهم هم الذين يستشعرون عظمة الخالق وعلو شأنه فيسبحون ويستغفرون، فالسموات تشاركهم هذا الإحساس بعظمة الخالق حتى لتكاد تتفطر من روعة عظمة ربها.. ومن زيغ بعض أهل الأرض عنها.

﴿**تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم**﴾ (الشورى: ٥).

ثم.. كم يبلغ عدد هذه السموات التى تكاد يتفطرن استشعارا لعظمة الخالق العظيم.. فى حين يغفل بعض أهل الأرض عنها ؟

إننا نرفع أنظارنا إلى السماء فيهولنا اتساعها.. وكثرة عدد نجومها، وهيبة شمسها وجمال قمرها.. ونسافر فى الأرض فلا نحيط بكل أجزائها.

ومع ذلك كله فليست الأرض والسماء التى نعرفها سوى نقطة صغيرة كرأس الدبوس فى بحر الكون اللامتناهى، وما عرفناه حتى الآن هو أن فى السماء نحو مائة ألف مليون مجموعة من الشموس، على غرار المجموعة الشمسية التى تقع الأرض فيها، وفى كل مجموعة منها نحو مائة ألف مليون شمس كشمسنا هذه التى يبهرنا منظرها،

بينها وبين بعضها من المسافات الشاسعة ما يقاس بمئات الألوف والملايين من السنين الضوئية.. وسرعة الضوء كما يعرف الجميع هى ١٦٨ ألف ميل فى الثانية الواحدة..

وهذه السموات والشموس التى لانعرف عنها إلا أقل القليل تشترك كلها فى هذا النشيد الجماعى الذى يسبح بعظمة الخالق.. ويشفق على العصاة من عباده.. كما أن الجبال تشاركها أيضا هذا النشيد الأبدى المهيب ﴿**وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير**﴾ (الأنبياء: ٧٩).

فكيف يغفل الإنسان وحده عن تسبيح ربه والالتزام بطاعته وهو أجدر المخلوقات بالإيمان والتسبيح والصلاة لربه ؟!

إن التسبيح ليس فقط تنزيها لله وتقديسا له وتحميدا بفضله.. واستشعارا لعظمته وروعة جلاله وكماله، وإنما هو أيضا تأدب مع الخالق.. ودعاء إليه.

فحين بدا للملائكة أن تتحفظ فى أدب مع خالقها على خلق آدم تساءلت أيجعل فيها من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء وهم الكائنات النورانية التى تسبح بحمده وتقدس له؟، علّم الحق سبحانه وتعالى آدم الأسماء أى الرموز اللفظية للأشياء والكائنات، وقال لملائكته: ﴿**أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**﴾ (البقرة: ٣١) كان جوابهم عجزا واعترافاً بقدرة الخالق وتأدبا معه: ﴿**قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾(البقرة: ٣٢).

كما أنه أيضا اعتذار وتوبة، كما تنبئنا قصة موسى عليه السلام مع ربه حين كلمه ربه فطلب منه أن يتجلى له فقال له ربه إنه لن يراه

﴿**ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

كما أنه أيضا دعاء «واستغاثة» وطلب للنجاة من الغم والكرب العظيم، كما في قصة ذى النون يونس عليه السلام صاحب الحوت، فلقد أرسله ربه إلى قرية ليدعو أهلها إلى الله ودعاهم فاستعصوا عليه فضاق بهم صدرا وغادرهم غاضبا بغير أن يصبر على تكاليف الرسالة وعناء الدعوة إلى الله، وقاده غضبه إلى شاطئ البحر فركب سفينة مشحونة ظانا أن الله لن يضيق عليه بعد خروجه من القرية، فتلاعبت الأمواج والرياح بالسفينة وقال ربانها إنه لا مفر من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو الآخرون . . وقيل في تفسير هياج البحر إنه كان علامة لدى القوم على أن من بينهم من ارتكب خطيئة ولابد من إلقائه في البحر لينجو الباقون، وتساهموا - أى أجروا فيما بينهم القرعة - فخرج السهم على يونس عليه السلام فألقوه أو ألقى بنفسه في اليم، والتقمه الحوت، فلما استقر في ظلام جوفه دعا ربه : ﴿**لا إله ألا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين**﴾ (الأنبياء : ٨٧) .

فنجاه ربه ولفظه الحوت على شاطئ البحر ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين**﴾ (الأنبياء : ٨٨) .

ولولا تسبيح يونس لربه وهو في ظلمات جوف الحوت لما نجا من سجنه داخله . . ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون**﴾ صدق الله العظيم (الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤) .

وهكذا أصبح من دعاء طلب النجاة أن يهتف المهموم بأمره : لا إله **إلا أنت** سبحانك إنى كنت من الظالمين .

كما أن التسبيح أيضا من دعاء أهل الجنة وهم فيها يرفلون ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾(يونس : ١٠) .

ولقد يحق لنا بعقولنا القاصرة أن نتساءل وماذا ينقص أهل الجنة من حاجة ليدعوا ربهم أن يحققها لهم . . ويجيء الجواب بأن ما يشغلهم حتى ليوصف مجازا بأنه دعواهم إنما هو تسبيح الله وحمده وإجلاله وتنزيهه وتقديسه، وأن تحيتهم لبعضهم البعض سلام . . وآخر دعواهم أن الحمد لله .

فنعم شغل المشغولين . . واللهم اجعلنا جميعا من المسبحين الذاكرين لله خوفا وطمعا . .

﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله** رب العالمين﴾ (الصافات : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢) .

قلعة الرعب!

هناك قصة معروفة فى التاريخ عن ثلاثة من الصغار نشأوا فى مدينة من مدن فارس اسمها نيسابور وتلقوا العلم فى مدرسة واحدة .

وكان الثلاثة من ذوى النفوس القلقة الطموحة . . فتعاهدوا فى جلسة صفاء بين بعض الدروس على أنه إذا أصبح أحدهم ذا شأن فى الدولة فى بوم من الأيام فليأخذ بيد صاحبيه ويساعدهما على تحقيق آمالهما فى الحياة .

ودارت الأيام دورتها وحقق أحدهم ـ وهو نظام الملك ـ طموحة وأصبح وزيرا للسلطان . . ملك شاه ، فذهب إليه صاحباه يذكرانه بالعهد القديم . . فاستجاب لرغبتهما وسألهما أن يتمنيا عليه بما يشتهيان .

وكان الأول شاعرا فيلسوفا له خطرات وتأملات فى الجمال والقدر والحياة هو عمر الخيام فكانت أمنيته متوافقه مع شاعريته وشخصيته ، ولم يطلب سوى أن يجد قوت يومه بلا عناء ، فأجرى عليه نظام الملك من بيت المال رزقا متواضعا حدده الشاعر بنفسه ولم يقبل أكثر منه . ثم انصرف لحياته وتأملاته وتردده بين الاستمتاع بالحياة والزهد فيها فترك

للبشرية أشعارا أصيلة جميلة مازال العالم بشرقه وغربه يترنم بها حتى الآن .

وأما الثانى فكان طالب دنيا ومغامرا طموحا وهو حسن الصّباح فطلب من صديقه أن يشركة معه فى الوزارة ، فعرض عليه نظام الملك ولاية إحدى المقاطعات لكنه أبى وأصر على مطلبه فاختار له منصبا فى قصر السلطان ، فلم يلبث أن أصبح بعد قليل صاحب حظوة عنده وصاحب كلمة مسموعة فى القصر ، وقاده طموحه الضارى وروحه المغامرة إلى المهالك فقيل إن يده امتدت إلى أموال الدولة وقيل إنه طمع فى إحدى جوارى السلطان وقيل إنه تآمر على صديقه الذى رفعه إلى منصبه ، وانتهى الأمر به إلى نفيه من القصر ومن عاصمة البلاد إلى قلعة نائية فى الصحراء القاحلة اسمها قلعة العقاب . . أو قلعة الموت ـ بمدة على الألف ـ فلم يهدأ ولم يخمد . . وحرض حراس القلعة على قائدهم حتى قتلوه! واستولى على عقول الحراس وقلوبهم ودعا بينهم بدعوة الفاطمية ثم استقل بعد قليل بفرقة جديدة من فرق المسلمين أصبحت تنسب إليه هى فرقة الحشاشين أو الصباحيين ، وقال بعض المؤرخين إنه كان يخدر أتباعه بتدخين الحشيش ويتأول آيات القرآن الكريم بما يبيح له قتل خصومه وإقناع أتباعه بأن الجنة تحت أقدام من يقتل خصومه وخصوم الدعوة . واتسعت فرقته واستفحل خطرها وزحف بهم إلى نيسابور وحرض على قتل صديق طفولته نظام الملك فقتله الأتباع المبشرون بالجنة من زعيمهم ! وظلت فرقته تمارس نشاطها وتثير الرعب فى قلوب الحكام المسلمين وتحتمى بالقلعة الحصينة التى

عجزوا عن اقتحامها والقضاء على خطرها . . حتى جاءت نهايتها ونهايتهم جميعا على يد من هو أبشع منهم . . فقضى عليهم وأبادهم تماما هولاكو حين غزا المغول قلعة الرعب قبل زحفهم إلى بغداد سنة ١٢٥٦ ، وانتهت بذلك تلك الصفحة الدامية وحقت عليهم وعلى الجميع كلمة الإمام مالك بن أنس حين قال «قد ينتقم الله من ظالم بظالم . . ثم ينتقم من كليهما» ! . . إنه سميع مجيب !

هنا تسكب العَبرات

أخيراً حسمت أمرى وقررت أن أقوم بتلك الرحلة التى تهيأت لها أكثر من مرة من قبل ثم حالت بينى وبينها ظروف الحياة .

للسفر طقوس وعادات أحرص عليها فى كل مرة أستعد فيها للخروج إلى العالم الواسع . فحين يقترب موعده انقطع عن الخروج من البيت يومين متتاليين لأكتب أعمالي المتأخرة ، وتستقر على أرض غرفة نومى الحقيبة التى اخترتها لترافقنى فى رحلتى . . وأظل طوال هذين اليومين أضع فيها ما سوف أحتاجه فى السفر . . وكلما تذكرت شيئًا أضفته إليها إلى أن اكتشف عادة أنها تضيق بما تحمل فأستعين فى اللحظة الأخيرة بحقيبة جديدة ، لكن ظروف هذه الرحلة تختلف تماما عن كل رحلاتى السابقة . . فالحقيبة الصغيرة خالية من معظم ما أحرص عليه فى السفر . وكل ما فيها بسيط ومتواضع .

وقد انتهيت من كتابة الأعمال المطلوبة منى . . فلم أراجع مرة ثانية وثالثة محتويات الحقيبة لأتأكد من وجود كل ما أحتاج إليه من بدَل وقمصان وربطات عنق .

وإنما نهضت من مكتبى فقصصت شعرى . . وقلمت أظافرى واغتسلت ، ثم دخلت غرفة نومى وخلعت كل ملابسى ، ثم لففت

خصرى بشكير أبيض وأحكمت رباطه بحزام أبيض ثم لففت حول صدرى بشكيراً آخر . ووضعت قدمى فى شبشب بسيط . . وأنهيت كل استعداداتى للسفر .

يا إلهى . . كيف ستواتينى الجرأة على الخروج أمام الآخرين شبه عار هكذا وفى برد الشتاء وأنا من يتحرج من الخروج من بيته حتى فى الصيف الحار بالقميص والبنطلون، ويحرص على ارتداء البدلة الكاملة والكرافت صيفا وشتاء . . إن هذا هو سر آخر من أسرار هذه الرحلة النورانية التى سأقوم بها . . فإنى مسافر إلى حيث لا يعنينى مظهر ولا ملبس ولا وظيفة . . وإنما يعنينى فقط أن يتقبلنى من أهاجر إليه لأؤدى العمرة وأقضى ليلة رأس السنة الميلادية فى بيته الحرام مع صديقى «وشيخى» الأديب الفنان أحمد بهجت . وأنت حين تغادر بيتك إلى هذه الرحلة الروحية ترتد عارياً كما ولدتك أمك وترتدى رداء الإنسان حين يولد وحين يغادر الحياة تاركاً خلفه كل حطام الدنيا . . ومطامعها . قطعتان من القماش الأبيض غير المخيط هما كل ما سوف ترتديه لتعود إلى فطرتك التى فطرك الله عليها وتتخلى عن كل متاع الدنيا آملاً أن يتقبلك ربك فى رحابه . . أما نظرات الآخرين لك إذا رأوك هكذا فلن تحس بها ولن تضطرب لها لأنه لا يعنيك فى هذه اللحظات شىء سوى أن تقول لربك بما فعلت : ربى إنى قد خلعت ردائى . . وهجرت أهلى وعملى وكل رغائب الدنيا وجئت إليك تائباً باكياً مستشفعاً فتقبلنى فى عبادك الصالحين .

انتهيت من ارتداء ملابس الإحرام وهذه الخواطر تطوف برأسى وقد تولتنى حالة وجدانية لا أستطيع تفسيرها من الخوف والاضطراب والرجاء . . والزهد فى كل شىء وقد عزفت عن الكلام وتمنيت ألا

يكلمنى أحد حتى لا أضطر إلى الخروج عن صمتى . صليت ركعتين خفيفتين بنية العمرة وقلت : اللهم إني نويت إداء العمرة فيسرها لى وتقلبها منى . ثم بدأت التلبية : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . وأحسست بعد أن هتفت بها أن كل ما كان بينى وبين العالم القديم قد انقطع فى هذه اللحظة فلم أعد زوجاً ولا أباً ولا إبناً ولا صحفياً ولا كاتباً ولا صديقاً لأحد وإنما إنسان خائف . . خائف حتى الموت . . تلقى نداء سماويا بالسفر فأجاب النداء واجفا وهتف باطنة مناجيا ربه : لبيك . . إنى قادم إليك مستجير بك من عذابك . . طامع فى رحمتك . . لقد خلعت نفسى من كل ما كنت فيه ولم يعُد لى أمل فى الحياة إلا أن تشملنى برحمتك . . ويا ويلتى إن ضاقت عنى أو سُدت فى وجهى أبوابها . خرجت من غرفة نومى فلفحنى برد الشتاء وزاد من ارتجافى الداخلى فكررت التلبية لأنى انتقلت من «حال إلى حال» وغادرت مسكنى فلم أدر بشىء ولم أتنبه إلى إنى أسير أمام الجميع شبه غائب عما حولى . . حتى عن جيرانى الطيبين المهنئين . يا إلهى لماذا تشرق الوجوه عندما يراك أصحابها بهذا الرداء البسيط . ولماذا يبتسمون فى وجهك ويهنئونك ويسألونك الدعاء وأنت شبه عار أمامهم . إنه سر آخر من أسرار هذه الرحلة النوارنية سوف تحس به طوال الطريق .

مررت على بيت صديقى أحمد بهجت واصطحبته إلى المطار وأسلمته من هذه اللحظة قيادى فهو طائف قديم بالبيت الحرام وأنا تلميذ جديد يتلمس الطريق . صعدنا إلى الطائرة فقابلتنا نفس الوجوه الباسمة المشرقة بالترحيب إكراماً لردائنا المتواضع وخصتنا المضيفة العطوف برعايتها طوال الطريق . وكررنا التلبية فى كل «حال» انتقلنا

إليها؛ من السيارة إلى الأرض . . ومن الأرض إلى الطائرة ثم في مطار جدة، وفيه استقبلنا صديقان ورتبا سفرنا على الفور بسيارة إلى مكة المكرمة. استوت السيارة على الطريق وحل الظلام والسكون . . وطال ترقبي للحظة التي سأرى فيها بيت الله الحرام وأردد دعاء «معاينة» الكعبة المشرفة . . لكنني لا أحس بالملل أو القلق وإنما أحس بسلام غريب رغم مخاوفي . . فقد فرغت من كل هموم الحياة ولم يعد يشغلني سوى الأمل في رحمة الله.

اقتربت السيارة من بيوت مكة فكررنا التلبية . . ودخلت السيارة المدينة وعيناى معلقتان بالسماء تترقبان رؤية مآذن البيت الحرام . . وخفق قلبي بشدة حين رأيتها . . وتحشرج صوتي بالتلبية والدعاء:

ـ اللهم إن هذا الحرمَ حـرمُك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة أسألك مسألة المضطرين إليك . . المشفقين من عذابك أن تستقبلني بمحض عفوك.

اختنق صوتي حين وصلت إلى نهاية هذا الدعاء . . وتعلق القلب الحزين بالأمل في أن يستقبله ربه بمحض عفوه وهو من لا أمل له سواه.

هل فكرت مرة في حكمة هذا الدعاء الذي يردده الطائفون حول البيت العتيق.

ـ رب اغفر وارحم . . وتجاوز عما تعلم؟

لقد فات وقت الإنكار والجميع يقرّون بذنوبهم التي يعلم عنها ربهم

أكثر مما يعلمون هم عنها فهل للإنسان في مثل هذه الحالة إلا الأمل في أن يتجاوز عما يعلم؟

أودعنا الفندق حقائبنا البسيطة وتوجهنا على الأقدام إلى المسجد الحرام ودخلت من باب العمرة فرأيت المصلين حولي في كل مكان . . ولم أر بعد البيت الحرام . .

جَدَدَت في السير وراء شيخي . . متلهفًا على رؤية الكعبة المشرفة وَنزلت إلى ساحة المسجد الرخامية حاني الرأس . . ثم رفعت رأسي فجأة فوجدت نفسي أمام البيت الحرام لأول مرة في حياتي فلم أدر بما حولي ولا بما تولاني من مشاعر وأحاسيس طاغية وانخرطت فجأة في بكاء مرير طويل لم أبكه من قبل إلا حين مات أبي وشقيقان لي رحمهم الله جميعًا. عجزت عن السير فوقفت حيث أنا . . ووقف أحمد بهجت ينظر إلي في فهم لحظات ثم سحبني من ذراعي برفق ومضى بي في اتجاه الكعبة.

بماذا أحسست في هذه اللحظات . . ولماذا لم أفعل كما يفعل الآخرون حين يعاينون الكعبة لأول مرة في حياتهم فيستبشرون ويبتهجون ويشكرون ربهم أن مكنهم من زيارة بيته المحرم ويرددون دعاء معاينة الكعبة: . . اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره . . تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا وبرًا اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام».

لقد رددت هذا الدعاء وراء أحمد بهجت حين تمالكت نفسي بعد قليل ووجدت صوتي . . لكن لماذا تولاني هذا الإحساس الطاغي المرير حين رأيتها لأول مرة. لقد سألني أحمد بهجت فيما بعد هذا السؤال

فترددت طويلاً فى مصارحته بما أحسست به ربما لغرابته . . وربما خوفا من أن يمس التعبير عنه جلال المكان . لكنه كان إحساسى على أية حال ولا حيلة لى فيه . . فلقد تمثلت فجأة صورة اللص الذى ضبط متلبساً بارتكاب جريمته ورفع رأسه فجأة فوجد رجال الشرطة يحيطون به من كل جانب وينهالون بكعوب بنادقهم فوق رأسه فعرف أنه لم يعد يجدى الإنكار أو التنصل من جريمته وتعلق أمله الوحيد باسترحام معاقبيه فرفع ذراعيه مستسلما وهتف صارخًا من الألم والرعب والضربات الموجعة :

ـ أنا فى عرض النبى !

نعم كان هذا هو إحساسى بصدق حين عاينت الكعبة لأول مرة فى حياتى . . فلقد أحسست أنى هذا اللص الذى ضبط متلبسًا بكل ذنوبه على مدى حياته فلم يعد له من أمل سوى الرحمة وتخفيف العقاب فهتف باطنه متشعفًا عند ربه بعرض نبيه وذمته . .

فاللهم أقبل شفاعته فينا وفى عبادك الضعفاء ولا تردنا خائبين !

تجاوزت موقفى بصعوبة وغالبت مشاعرى وارتجافى . . واتجهت إلى الكعبة المشرفة هذا البناء صغير الحجم نسبيا الذى تهفو له القلوب من كل مكان ويتجه إليه المصلون فى كل أرجاء الأرض ، أى سحر غامض وأية مهابة فى هذا البناء الصغير المقام فوق قاعدة ارتفاعها ٧٥ سم ، وبار تفاع ١٣ متراً والذى يختلف طول أضلاعه فيبلغ ضلعه من جهة باب الكعبة ١٢,٢٠ متراً ، ومن جهة باب إبراهيم ١٢,٦٠ متراً ومن جهة الحطيم ١٠,٤٠ متراً ومن جهة الحجر اليمانى ١٠,٦٠ متراً ؟

وكيف شاءت إرادة الله حين تصلى فيه فى أية جهة من الجهات الأربع فى مواقيت الصلاة أن يكون خلفك فى نفس اللحظة ملايين من المصلين فى أحد أركان الأرض الأربعة فكأنك حين تصلى فيه تقف إماما من حيث لا تدرى لملايين آخرين من المصلين لا تعرف مستقرهم ولا أين يصلون نفس هذه الفريضة وراءك ؟

تجيبك عن هذا السؤال آية كريمة ودعاء مأثور ، أما الآية الكريمة فجاءت على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أودع زوجته السيدة هاجر وولده الرضيع إسماعيل هذا المكان قبل بناء الكعبة ولم يكن فيه بشر ولا حياة ومضى عنهما داعيًا ربه ﴿**ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾ (إبراهيم : ٣٧) .

أما الدعاء فتقوله حين تبدأ الطواف حول الكعبة سبع مرات للحج أو العمرة فتقول بعد أن تستقبل الحجر الأسود : اللهم إيمانًا بك . . وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعًا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه الكلمات المباركة تفسير كامل لسر «هوى القلوب» إلى الكعبة المشرفة . . وهو سر لا يقتصر على أن الحج فريضة وركن من أركان الإسلام وأن الجميع مأمورون به لمن استطاع إليه سبيلا إذ لو كان الأمر أمر فريضة فقط لما رأيت هذه «الدائرة المتحركة من البشر» تدور حول الكعبة بلا توقف إلا عند أداء الفروض الخمس لمدة ٢٤ ساعة يوميا على مدى ٣٦٥ يومًا كل سنة بلا بداية . . ولانهاية ! ولاقتصرت هذه الدائرة البشرية اللانهائية على موسم الحج والعمرة فقط ، فلقد

جعل الله أفئدة من الناس تهوى إلى هذا المكان فى كل ساعة من ساعات النهار والليل وعلى مدى العام كله؛ فجاءوا إليه إيمانًا به وتصديقًا بكتابه واتباعا لسنة نبيه.

والإيمان هو التصديق بالقلب وهو يقع فى القلب أولا ثم تؤكده البراهين العقلية فيما بعد. لهذا فسوف تطوف حول الكعبة سبع مرات دون أن تسأل: ولماذا سبع مرات فقط وليست ثمانية.. وسوف تسعى سبعة أشواط بين جبل الصفا وجبل المروة دون أن تهتم بأن تعرف أنك تكرر بذلك سعى السيدة هاجر بين الجبلين حين اشتد العطش بوليدها إسماعيل فهرولت إلى الصفا وارتقته تنظر حولها عسى أن تجد علامة حياة تقترب منها فلم تجد فسعت إلى المروة و وارتقته وفعلت نفس الشيء، وتكرر السعى سبعة أشواط هى التى تسعاها الآن ضمن مناسك العمرة والحج.

لن تسأل عن ذلك وإنما ستصدع بما تؤمر وستُتم الطواف حول الكعبة وصدرك يجيش بالانفعال والأمل فى رحمة الله.. وستتوجه إلى مقام إبراهيم وهو حجر صغير كان يقف عليه سيدنا إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت حين ارتفع البناء عن قامته، وتصلى ركعتين أمامه أو فى أى مكان من المسجد الحرام ثم ستقف بعد أداء الصلاة بباب الملتزم وهو المساحة التى تفصل بين الحجر الأسود وباب الكعبة.. وسوف تحاول أن تجد لنفسك مكانا لتلتصق به صدرك وترفع ذارعيك وتتعلق بأستار الكعبة مستغفراً تائبًا باكيًا.. وسوف تتذكر أن الرسول الكريم قد رأى عمر بن الخطاب فى نفس موقفك هذا وهو يبكى بحرارة فقال له: هنا تُسكب العَبرات. وسوف ترجع عن الكعبة

وتشرب من ماء زمزم ثم تتجه إلى المسعى لتكتمل مناسك العمرة بالسعى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

وسوف تتلو هذه الآية الكريمة وأنت تقف فوق الصفا والمروة فى كل مرة:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يَطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ (البقرة: ١٥٨).

وسوف تعجب معى من كرم ربك وسماحته.. وسوف تسأل وهل يشكرُ الرب عبده على تطوعه أو طاعته له؟ وسيجيئك الجواب بأنه وحده جل شأنه الذى يفعل ذلك فضلاً وكرمًا. وبهذا الكرم وحده سوف تتعلق القلوب الواجفة والطامعة فى رحمته وفضله.

وتنتهى أخيراً مناسك العمرة بعد منتصف الليل بساعة ونتحلل من الإحرام بقص الشعر ونعود إلى الفندق مجهدين فى نهاية رحلة بدأت فى الصباح، فأتنبه فى هذه اللحظة فقط إلى أنى قد طُفتُ حول الكعبة وسعيت بين الصفا والمروة حافيًا لمسافة لا تقل عن ٩ كيلو مترات على الأقل وأنا من يعجز عن السير لمسافة ٥٠٠ متر فقط ثم يتوقف لاهثا شاكيًا آلام العظام وتيبس المفاصل.. وأفكر فى هذا الأمر طويلاً فلا أجد له تفسيراً إلا فى دعاء نية العمرة الذى دعوته فى الصباح حين أحرمت ودعوت ربى.. أن ييسر لى العمرة.. ويتقبلها منى..

ولقد يسرها لى بفضل من عنده... فهل يتقبلها أيضًا؟

الشاطئ البعيد!

أريد ـ ونحن في رمضان ـ أن أبوح لك بسر صغير . . هو أنني لا أغبط أحدا على شيء كما أغبط من شرح الله صدره للقرآن فدرسه في صباه أو في شبابه ثم لم تمحه الأيام من صدره بعد ذلك!

أما لماذا أغبطه على ذلك فلأنني أشعر بالعجز عن بلوغ هذه الغاية العزيزة، أو حتى الاقتراب منها بالرغم من أنني قد بدأت مشروعي، الخاص «للنظر» في القرآن منذ ما يزيد على عشر سنوات، ولم تلح لي بعد أية علامة على اقتراب الشاطئ البعيد بالرغم من طول الإبحار في بحر الفيض الإلهي الكريم. ولهذا أغبط هؤلاء الذين كان لهم من حظوظهم أن بدءوا هذه الرحلة المباركة وهم في سن الصبا والشباب . . والحافظة عندهم فتية والذاكرة صحيحة عفية، وما يتسرب إليها من الفيض الإلهي فكأنما ينقش على حجر يتحدى الزمن أن يمحوه .

وأقول إنني أغبط أمثال هؤلاء المحظوظين لأن غبطة الشيء لغويا هي تمني الحصول عليه مثلما حصل عليه الآخرون، وهو معنى آخر مخالف تماما لمعنى الحسد البغيض الذي لا يعني لغويا إلا تمني زوال نعمة الغير . . وليس الحصول عليها مثلهم .

والحسد بالمناسبة هو أول ذنب عُصيَ به الله في الجنة . . حين نَفَس إبليس على آدم ما اختصه به ربه من تكريم فأبى أن يسجد له كما

فعلت الملائكة . . وهو أيضاً أول ذنب عُصيَ به الله أيضا في الأرض حين حسد قابيل على أخيه هابيل فوزه بأختهَ إقليما من دونه وتقبل الله قربانه منه دون قربان قابيل؛ فقتل أخاه . . وحمل جثمانه فوق ظهره لا يدري ما يصنع به حتى أرسل إليه الله سبحانه وتعالى غرابا ينبش في الأرض ويعلمه كيف يواري سوأة أخيه .

أتذكر في بعض الأحيان حين أراني «أجاهد» لحفظ بعض الآيات . . وأختبر ذاكرتي من آن لآخر حتى لا تتطاير منها بعد حين، ما قاله الإمام الشافعي عن «سوء حفظه» في شبابه المبكر وكيف هداه صديق له اسمه وكيع إلى سره فقال الإمام:

شكوت إلى وكيع سوءَ حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني أن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

أتذكر هذين البيتين من الشعر فأشفق على نفسي من أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لسوء حفظي وليس وهن الذاكرة وصعوبة الحفظ في الكبر . . وأعزي النفس بأنني أحاول قدر جهدي المحدود أن أعوض ما فاتني من الحفظ بالفهم والتأمل والنظر الطويل في معاني الآيات والكلمات وقراءة التفاسير . . ودراسة أسباب النزول . . والتفكر في المرامي البعيدة للذكر الحكيم . .

فهيهات أن يتسع العمر للتفكر في كل كلماته وقد زادت على سبع وسبعين ألفا . . وهيهات أن يثبت في الذهن المجهد كل ما يتمنى المرء أن يحتفظ به ذخرا له في الدنيا . . وشفيعا له في الآخرة . . وقرأت بالمناسبة لأستاذنا الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه البديع

«إعجاز القرآن» أن ضياء الدين بن الأثير ـ وكان من مجتهدى أئمة البلاغة ـ كان يختم القرآن مرة فى كل أسبوع . . ثم أراد أن ينظر فى أنواع البلاغة المستكنة فيه فجعل يقرأه مرة كل شهر ثم أبعد فى النظر فكان يختمه فى سنة ، ثم أمعن فى النظر أكثر فقال إنه قد قطع سبع سنين ولما يفرغ منه بعد ولا أتى على الغاية من تدبر أنواع البلاغة فى كلماته وحروفه ، مع أنه كما قال الرافعى لم يكن يبحث منها إلا فى الصناعة البيانية وحدها دون بقية أسرارها .

فكيف بمن أراد أن يستجلى كل معانيها . . ويستوعبها ويزعم فهمها حق فهمها؟

أنظر إلى كتب التفاسير التى تحيط بى . . وتتصدر مكتبى عادة فى شهر رمضان من كل عام وأتذكر هذه الكلمة الرائعة للأستاذ الرافعى فى نفس هذا الكتاب .

«ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُبض ولم يفسر من القرآن إلا قليلا جدا وهذا وحده يجعل كل مُنصفَ يقول : أشهد أن محمدا رسول الله ، إذ لو كان صلى الله عليه وسلم قد فسره للعرب بما يحتمله زمنهم وتطيقه أفهامهم لجمد القرآن جمودا تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها لأن كلام الرسول نص قاطع ، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية . . فتأمل حكمة ذلك السكوت فهى إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه!» .

تطربنى هذه الفقرة كلما قرأتها أو رجعت إليها . . وأجدنى فى كل مرة أقول صدقت والله يا أستاذنا الرافعى فإن من جواهر القرآن ما لم يفسره العقل إلا اهتداء بحقائق مستحدثة لم يتوصل إليها العلم إلا فى الزمن المتأخر ولسوف نكتشف كل يوم منه المزيد والمزيد إلى يوم يبعثون .

أقرأ «كتاب الإنسانية» . . فأطيل الوقوف أمام آيات الرحمة فيه وتطيب النفس الخائفة بقراءة قول الحق سبحانه وتعالى : **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** [الزمر : ٥٣] ، وقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** [آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦] .

نعم . . نعم ومن يغفر الذنوب إلا الله سبحانه وتعالى لقد روى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في الحديث القدسى الذى أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد أنه لما خلق الله الخلق كتب عنده فوق عرشه «رحمتى تسبق غضبى» ، وروى عنه أيضا صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسى :

«قال الله عز وجل : أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى . والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته فى الفلاة ومن تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهرول» .

فما أكثر عجبى وإعجابى بهذه العبارة المباركة : لله أفرح ـ أى أكثر فرحا ـ بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته فى الفلاة! وما أعجبنا حين لا نستحى ممن يفرح بتوبتنا عن معصيته ـ وهو الغنى عن العالمين ـ أكثر مما يفرح أحدنا حين يجد شاته الضالة فى الصحراء بعد اليأس منها!

تستوقفنى كذلك فى سياحتى الدينية فى شهر رمضان من كل عام هذه القصة الجميلة التى رواها ابن كثير من أن رجلا من أهل الشام كان

يفد على عمر بن الخطاب فى زمن خلافته ثم انقطع عنه وسأل عنه عمر فقيل له إنه قد استغرق فى الشراب فدعا عمر كاتبه وأملى عليه رسالة يقول فيها : «من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك وبعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير» . ولم يضف إلى رسالته حرفًا آخر وقال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما تلقى الرجل كتاب عمر راح يقرأه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب! لقد حذرنى عقوبته ووعدنى أن يغفر لى . ولم يزل يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع ، أى فتاب وحسنت توبته وعبادته ولم يرجع إلى المعصية . وبلغ عمر ذلك فقال لأصحابه : هكذا فاصنعوا . . إذا رأيتم أخا لكم زلّ زلة فسددوه ووثّقوه ـ أى لا تفقدوه ثقته فى نفسه ـ وادعوا له الله ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه!

فلله درك يا عمر . . فلقد أدركت روح الدين الذى لا يتهلل للعقاب بقدر ما يتهلل للصفح والمغفرة ويرجو توبة التائب عن الخطايا أكثر مما يرجو عقابه ولا يزرع اليأس فى نفوس الخطاة من رحمة ربهم ولا ينفرهم من التوبة ولو ثقلت الخطايا فى الميزان . .

أقرأ أيضا ما كتبه الشيخ الجليل الغزالى رحمه الله فى كتابه العظيم «التفسير الموضوعى للقرآن الكريم» فيزداد عجبى وإعجابى . . كره الله سبحانه وتعالى من مطيع له أن تطاول بطاعته على غيره ، وقال لرجل مقصر : «والله لا يغفر الله لك أبدا» ، فقال الله له يوم القيامة : «أكنت على ما فى يدى قادرا؟! فإنى قد غفرت له وأحبطت عملك» . . وأتساءل أليست هذه هى الرحمة التى تسع كل البشر؟! فاللهم اجعلنا ممن تقضى فيهم برحمتك التى تسبق غضبك ، وليس بعدلك الذى لا يظلم معه أحد . . فإن قضاءك عدل وحكمك نافذ ،

صبر المرء أم جزع غير أن مع الصبر الأجر ومع الجزع الوزر ، ونحن راضون بحكمك فينا فإن نلنا ما نستحق من عقابك فهو العدل ، وإن نجونا بفضلك من العقاب فهى الرحمة .

وليس ذلك عليك ببعيد وأنت جل شأنك من روى عنك رسولك الكريم صلوات الله عليه فى الحديث القدسى الذى أخرجه البخارى فى كتابه «التوحيد» أيضا ، ويحكى أن عبدا أصاب ذنبا فقال : رب أذنبت ذنبا فاغفر لى . فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدى .

ثم مكث العبد التائب ما شاء الله له أن يمكث وأصاب ذنبا آخر وكرر الدعاء فكرر له ربه المغفرة عدة مرات فقط لأنه قد علم أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به أى يعاقب عليه . ولم يتطاول على ربه بذنبه وصدقت نيته على التوبة . حتى وإن تكرر الخطأ منه بعد ذلك فـ :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل

فى الله يجعلنى فى خير معتصم

فاللهم اغننا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبوجهك الكريم عمن سواك واقذف بنور الهداية إلى النفوس الحائرة واجعلنا ممن قال فيهم الإمام البوصيرى :

وإذا حلت الهداية روحا نشطت للعبادة الأعضاء

وآخر دعوانا أن الحمد لله مالك الملك سبحانه غافر الذنب قابل التوب ذى الطول .

. . ورمضان كريم

صدر للمؤلف

العنوان	النوع	الطبعة	السنة
١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الخامسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٠ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٩
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٤ ـ وقت السعادة . . ووقت البكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
١٥ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٦ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٧ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٨ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١٩ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
٢٠ ـ خاتم فى أصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٢١ ـ وحدى مع الآخرين	مقـــالات	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٢٢ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢٣ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ مكتوب على الجبين	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٥ ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٦ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١

٢٧ ـ اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٨ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٩ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	١٩٩٨
٣٠ ـ قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
٣١ ـ صور من حياتهم	قصص قصيرة	الطبعة الأولى	١٩٩٨
٣٢ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٣ ـ أهلا مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
٣٤ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٨
		الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
٣٥ ـ قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الأولى	١٩٩٩
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٣٦ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٧ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٨ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٣٩ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠

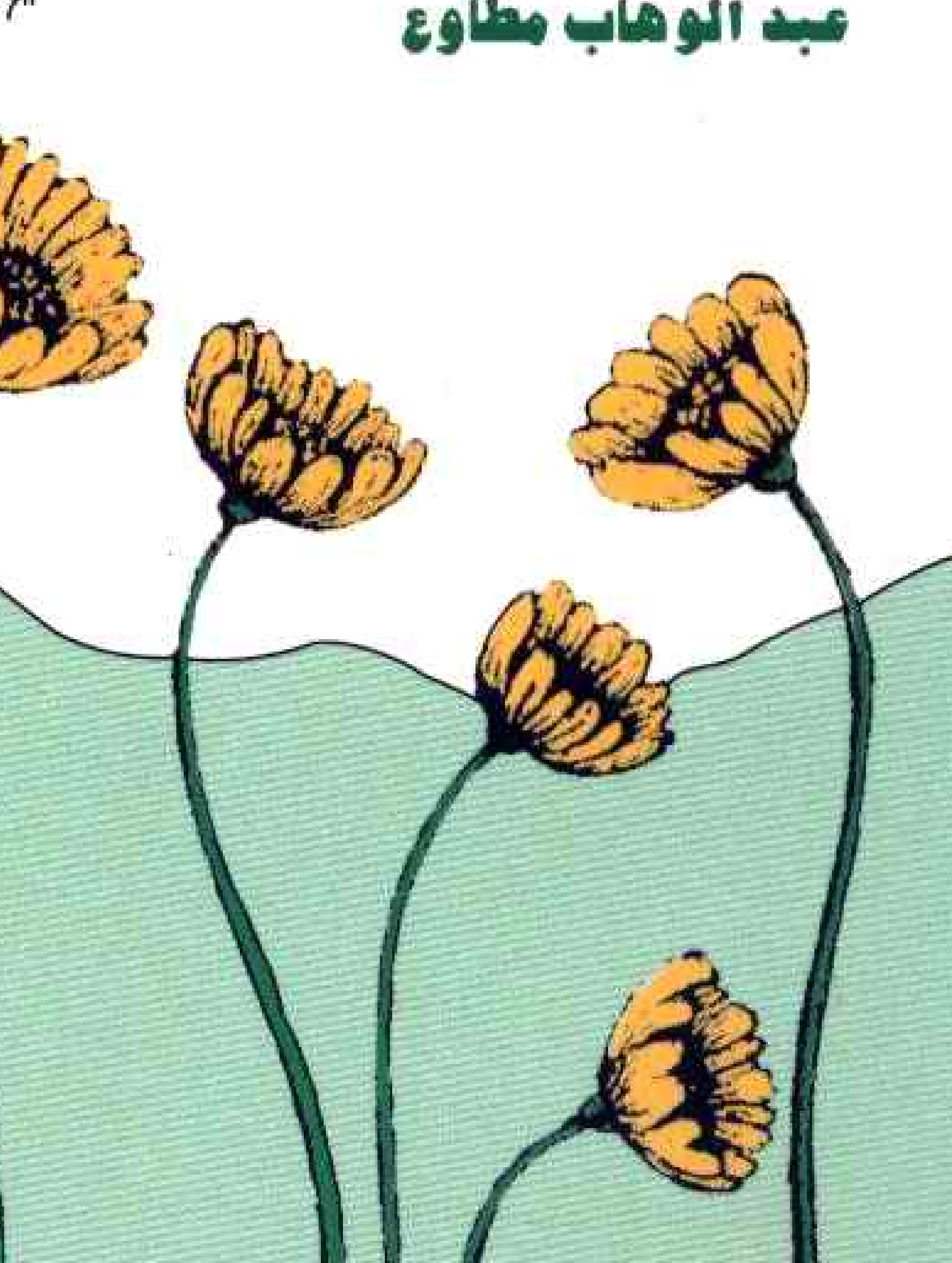
المحتويات

هذا الكتاب

هذا كتاب يختلف عن كل ما أصدرت من كتب جاوزت حتى الآن الثلاثين عددا ! فهو ليس مجموعة مختارة من قصص بريد الجمعة كما هو شأن بعض كتبى ، ولا هو مجموعة من الصور الإنسانية والمقالات الأدبية كحال كتبى الأخرى ، ولا هو أيضا مجموعة من القصص الرومانسية القصيرة كحال بعض كتبى الأخيرة ، وإنما هو ـ إذا صح التعبير ـ تسبيحة خاشعة بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعريضة استغفار واسترحام أتقدم بها إلى الأعتاب الإلهية راجيا بها عفو ربى ومغفرته ورحمته التـــى وسعـــــت كـــل شـــئ ولا أمل لأمثالى من المقصرين فى غيرهـــــا يوم الـعـــرض العظـيم.



6 221102 002967



تصميم : محمد حجي